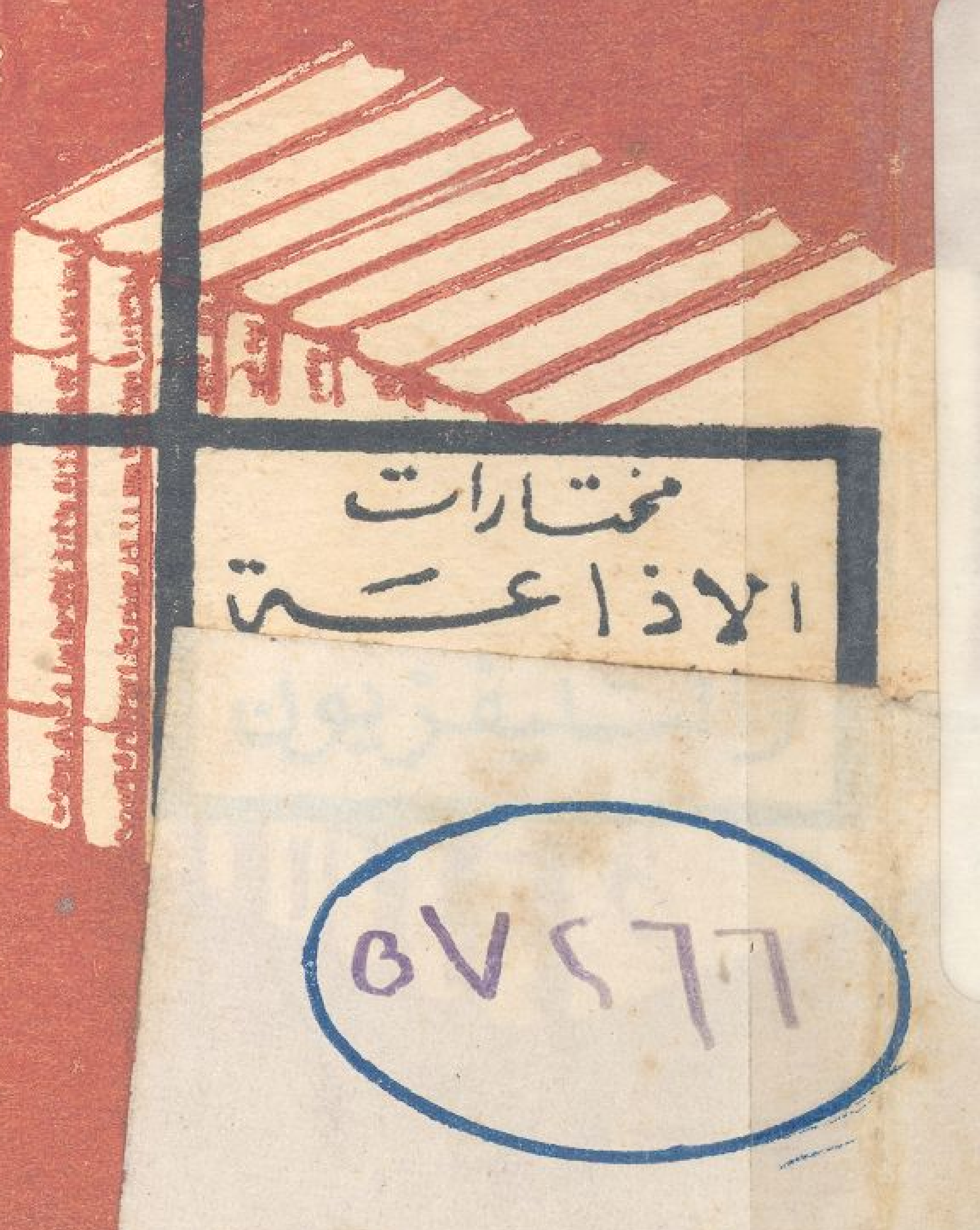


من الشرق والغرب

بين آمو - داريا وجمنا

بقلم
أرنولد توينبى
ترجمة : حسين الحوت

الناشر
الدار القومية للطباعة والنشر



من الشرق والغرب

بين آمو - داريا وجمنا

بقلم
أرنولد توينبي

مقدمة

هذا الكتاب وصف للاقليم الواقع بين نهرى أمور — داريا وجنا . وقد جاء نتيجة لرحلة قمت بها فى عام ١٩٦٠ مبدؤها ومنتهاها فيما بين هذين النهرين ولما كان النهران هما حدود رحلتى فقد جعلتهما عنوانا لهذا الكتاب .

ان نهرى السند وجنا ينبعان من سهل واحد ، وليس فى طبيعة الأرض ما يحدد خط تقسيم المياه بينهما على حين انك تجد خط التقسيم بين السند وامور داريا واضحا فهو سلسلة جبلية تغطى الثلوج قممها فى معظم أيام السنة . وهى تبدأ بجبال هندوكوش وتنتهى بهضبة البامير .

ان الممرات الجبلية فى جبال هندوكوش قليلة وليس فى الإمكان مرور السيارات إلا فى اثنين فقط من هذه الممرات وقد كان الانتقال عبر هذه الممرات منذ فجر التاريخ سيرا على الأقدام فاذا ما استطاع العابر أن يمتطى ظهر حمار فهو عابر محظوظ . وعلى كل فقد كانت هذه الممرات مغلقة فى وجه الانسان والحيوان على السواء أربعة أو خمسة أشهر من كل عام . وطالما كان الانتقال فوق جبال هندوكوش ممتعا تكتنفه الصعاب فالاسم الحالى لهذه الجبال (هندوكوش) معناه « تهلك الهنود » . أما فى الزمن القديم فقد اطلق عليه الاغريق عندما بلغوا هذه المنطقة فى فتوحاتهم إسم باروپاينزوس ومعناها : « أعلى من أن يحلق فيه النسر » . وقد علمت أن هذا السور الجبلى الهائل حائل دون انتقال سمك اللوت . فهذا السمك يعيش فى المجارى المائية الواقعة فى المناطق الشمالية الغربية ولكنه لم يستطيع أن ينتقل إلى المجارى المائية الواقعة فى المنحدرات الجنوبية الشرقية ولكن الانسان انتصر على الطبيعة حيث عجزت الاسماك فظل يعبر جبال هندوكوش ذهابا وجيئة منذ أقدم العصور كان يعبره

مسافراً ومهاجراً ولاجئا وغازيا وتاجرا وحاجا ومبشرا حتى لقد جعل الانسان من هذه المسالك الوعرة طريقا معبدا . أما السر فيما تحمل الانسان من مشاق فى عبور هذه الجبال فهو أنها تقع بين عالمين لا يكف كل منهما عن محاولة الاتصال بالآخر .

فجبال هندوكوش تقع بين شبه القارة الهندية وكتلة السياسة العظمى التى تتكون منها أوراسيا (أوربا وآسيا) . ومنذ أن بدأ الجنس البشرى ينتشر على وجه الأرض — دأبت شعوب هذين الاقليمين على الاتصال ببعضها رغم ما يعرض طريقها من قسوة الطبيعة المتناهية وحتى اليوم تجد البدو الرحل ينتقلون عبر هذه الجبال مرتين فى العام هم واطفالهم ونساؤهم وحميرهم وجمالهم .

كذلك لم تكن جبال هندوكوش حاجزا سياسيا ، ففى وقتنا الحاضر تقوم عليها وعلى جانبيها مملكة افغانستان ، وفى القرون الأولى من العصر المسيحى قامت فوقها امبراطورية كوشان التى امتدت بين نهرى أمور داريا وجمنا ولقد كانت كوشان إحدى الامبراطوريات الأربع الكبرى التى اقتسمت العالم المتحضر فيما بينها حينذاك فقد قامت فى منطقة وسط بين بارثيا فى الغرب والصين فى الشرق كما تبادلت التجارة مع الامبراطورية الرومانية عن طريق بحر العرب .

لقد كانت المنطقة الواقعة بين نهر آموردايا وجمنا مسرحا لحوادث حاسمة فى تاريخ البشرية . وهى لا تزال تسترعى انتباه المؤرخ . ولقد ظللت سنين عدة أتشوق لزيارة المنطقة ، حتى أتيحت لى الفرصة فى ١٩٦٠ .

أرنولد توينبى

١ — مركز المواصلات فى شرق العالم القديم

يدور على ألسنة الأوروبيين مثل يقول « كل الطرق تؤدى إلى روما » وهذا قول يبدو صحيحاً من وجهة النظر الأوروبية ، ولكن أوروبا ليست إلا تخماً من تخوم العالم القديم . والأوضاع المتضاربة تؤدى إلى وجهات نظر متعارضة . ضع نفسك ، لافى أوروبا ، ولكن فى العراق ، والعراق هو مركز « المعمورة » طبقاً لمنطق التاريخ . من هذا الوضع المركزى تجد أن طرق العالم القديم تتخذ لونا جديداً ، ويصبح واضحاً أمامنا أن نصف طرق العالم تؤدى إلى حليب لا إلى روما ، وأن النصف الآخر يؤدى إلى بجرام عند السفح الجنوبي لجبال هند وكوش الوسطى حيث تتلاقى ثلاث طرق رئيسية .

ويبدو أن مدنية العالم القديم ظهرت فى العراق منذ حوالى ٥٠٠٠ سنة ثم انتشرت من العراق شرقاً وغرباً . أما من ناحية الشرق فقد امتدت إلى فارس (إيران) وأفغانستان وشبه القارة والهند ، والباكستانيــة وآسيا الوسطى والشرقية . ومن ناحية الغرب امتدت إلى مصر والأناضول وجزر بحر إيجــة وشمال غرب أفريقيا وأوروبا وروسيا . وانتشار المدينة بهذا الشــكل من مهدها فى العراق إلى أطراف الأرض ، جعــل « المسـكونة » كأنها دار هائلة تحوى عدة قصور . وهــكذا أصبحت مدنيــة العالم القديم زوجية لا فردية ثم تتوقف إلى سلسلة من المدنيات الأقليمية تمتد من اليابان أقصى الشمال الشرقى إلى إيرلندة فى أقصي الشمال ، ثم تنحدر موغلة إلي جنوب خط الاستواء عند جاوه . غير أن مراكز المواصــلات التى نشأت على جانبي العراق لم تــكن فى علاقاتها مع بعضها البعض أو مع مركز المسكونة على مستوى واحــد . ذلك أن اختلاف أوضاعها الجغرافية جعلها تنقسم إلى فئتين فأصبح بعضها أطرافاً وبعضها مراكز مواصلات فرعية . فالأطراف هى نهاية المسكونة وهى قد أخذت بنصيب ممـا ورد عليها من مركز المدينة ولـكنها لم تستطـع أن تنقله إلى ما وراءها — أما

المراكز الثانوية فهي التى أصبحت بدورها مراكز جديدة للمدنية تتجه إليها الطرق من الجهات الأربع وتخرج منها متشعبة فى كل ناحية .

ومن الأمثلة القديمة للأطراف اليابان فهى فى أقصى الركن الشمالي الشرقى . للمسكونة ، وجاوه فى أقصي المنحنى الجنوبي ومراكش والجزر البريطانية واسكندنادة فى أقصى الركن الشمالى الغربي . اما المراكز الثانوية فيمثلها إقليمان يحفان بالعراق من الجانبين أحدهما سوريا (بمفهومها الجغرافى الواسع) فهى مركز المواصلات الغربي ، أما شمال شرق إيران (أفغانستان حالياً) فهى المركز الشرقى . ولقد كانت سوريا حلقة اتصال بين جنوب غرب آسيا ، وأفريقيا والأناضول واوروبا ، أما أفغانستان فقد كانت حلقة اتصال بين جنوب غرب آسيا وشبه القارة الهندية الباكستانية وآسيا الوسطى الشرقية ـ وقد تؤدى تقلبات الزمن إلى تحويل الطرق إلي مركز مواصلات وبالعكس . فمثلا أوروبا الغربية ظلت طرفا طوال ١٧٠٠ سنة ، منذ أن أصبحت جزءاً من المسكونة فى القرن الثالث قبل الميلاد . وفى خلال هذه القرون الطويلة كان المحيط الأطلنطى حاجزاً يحول دوان امتداد مدينة العالم القديم نحو الغرب غير أن سينيكا — الشاعر الرومانى الإسبانى المولد كان قد تنبأ ان هذا الحاجز الطبيعى سوف يخضع لمشيئة الإنسان يوماً ما ، وقد تحققت نبوءته بعد ١٤٠٠ سنة ، فى القرن الخامس عشر استطاع البرتغاليون صنع سفينة شراعية تبقى فى عرض البحر شهوراً طويلة وهذا الاختراع بدوره أدى عاجلا إلي سيطرة الشعوب الأوروبية على المحيطات وحول أوروبا إلى مركز عالمى رئيسى تخرج منه جميع المساعدة البحرية الهامة وتنتهى عنده هذه المساعدة . وقد أدى هذا الاختراع الجديد فى وسائل المواصلات إلى انزواء سوريا وأفغانستان مؤقتاً لأن الثروة التى تدفقت على هذين المركزين الثانويين للمدينة جاءت عن طريق النقل البرى علي ظهور دواب الحمل مثل الحمار والحصان والجمل . ولما كانت قدرة الإنسان على الإبداع لا تقف عند حد فقد تطورت وسائل النقل إلى القاطرات والسيارات ثم الطائرات . والنقل الجوى بدوره أدى إلي زحزحة أوروبا من مركز التفوق العالمى وبدأ يعيد إلى سوريا وأفغانستان أهميتها القديمة .

ولقد قدر لهذين المركزين الثانويين تاريخ فى المدينة ألا يصطدما بعوائق

النزاع على الحدود السياسية لاستعادة دورها التقليـدى كمركزين أساسين للمواصلات العالمية بأسرع مما هما عليه الآن . ويلاحظ أن بيروت أصبحت فى الوقت الحاضر من أهم الموانى الجوية الدولية . وتحاول تندهار ان تصبح مثلها .
أما عن النقل البرى الميكانيكى . فإن مشروعات الطرق التى يقوم بها المهندسون الروس والأمريكيين فى أفغانستان فى الوقت الحاضر ، تبشر بعودة أفغانستان مرة ثانية لاحتلال مكانتها العالمية كطريق أساسى للنقل الدولي مثلما كانت قديما فى عصر النقل على ظهور الحمير والجمال .

يقوم الروس الآن بشق طريق من تندهار إلى كوشكا نهاية الطرف الجنوبى لسكك حديد آسيا الوسطى السوفيتية — كذلك يقوم الأمريكيون بشق طريق من تندهار إلى شامان وهى نهاية الخط الحديدى الذى يسير بين كوتا والحدود الأفغانية الباكستانية .

وهناك طريق آخر ينشئه الروس من كابل عاصمة أفغانستان إلي قزل قلعة وهى ميناء نهرى قاموا هم ببنائه لأفغانستان على الشاطىء الأفغانى لنهر آمور داريا والمقرر أن يمتد هذا الطريق إلي جبال هندوكوش بواسطة شق نفق تحت ممر سالونج وهو احد الممرات الثلاثة (سالانج وشيبار وخاداك) التى تربط شبه القارة الهندية الباكستانية بآسيا الوسطى .

وفى غمرة المنافسة بين الروس والأمريكيين فى أفغانستان يقوم الأمريكيون بانشاء طرق أخرى من كابل إلي طور خام وهى نهاية الخط الحديدى الباكستانى الذى يخترق ممر خيبر .

وهنا الطرق الحديدية من شأنها أن تعيد إلى أفغانستان مكانتها التقليدية العالمية . بل هى الثمرة التى تجنيها أفغانستان من تلك المنافسة المحتدمة بين امريكا والاتحاد السوفيتى . إنها ثمرة طيبة ولكنها تنطوى على خطر كبير ذلك أن ملتقى طرق المواصلات له أهميته الاستراتيجية فى العالم بجانب قيمته الاقتصادية ، والأهميه الاستراتيجية تغرى بالأطماع السياسية .

ومما تقدم نرى أن أفغانستان أصبحت موضوعا شائقا يستهوى الدارس للشئون الدولية . وأهميتها الحاضرة للدارسين لا تقل عن أهميتها لدارس تاريخ الحضارة فى العالم القديم منذ خمسة آلاف عام . فمثل هذا الدارس إذا تتبع خطوط التاريخ الرئيسية من اقتصادية وسياسية وفنية ودينية ودراسات للمجتمعات البشرية لاسترعى انتباهه خلال هذه الدراسة . ملتقى طرق المواصلات فى القسمين الشرقى والغربى من العالم القديم .. وطالما كانت افغانستان طريقا رئيسيا لهجرات الشعوب ولانتشار الحضارات والديانات بل كانت نقطة مركزية فى بناء الأمبراطوريات .. وأن الدور الذى قامت به أفغانستان فى كل من هذه النواحى بصفتها ملتقى للشعوب وخطوط المواصلات لهو دور كبير نحتاج إلى قائمة طويلة لسرد الأمثلة الدالة عليه .. ونكتفى هنا بايراد بعض هذه الأمثلة :

لقد مرت بأفغانستان مواكب طويلة من الشعوب الرحل . وهى قادمة من آسيا الوسطى فى طريقها إلى شبه القارة الهندية ، والباكستانية . فالأوريون الذين مروا بأفغانستان فى النصف الأخير من الألف عام الثانية قبل الميلاد نقلوا إلى الهند اللغة السكسكويتية : وهم مؤسسوا الحضارة الهندية التى قضت على ما كان بالهند من حضارة سابقة للارية والتى يمثلها فى وادى السند بقايا موهنجو دارو وهارابا . ثم إن أفواجا من الغزاة الرحل الذين يتكلمون الإيرانية كانوا يحتلون حوض نهر هلمند وإقليم السنجاب فى القرن السابع قبل الميلاد وهؤلاء بدورهم يجدر بنا أن نذكرهم لأن المؤرخ الإغريقى هيرودوت أطلق على أحدى قبائلهم اسم باكتيس ، ويغلب الظن أن سلالة هؤلاء هم الباختونيون أو الباثامنيون الذين يشغلون جانبا من أفغانستان وباكستان فى الوقت الحاضر وإذا تحقق هذا تاريخيا فقد وضعنا أيدينا على حقيقة الأمر الذى استقر فيه أسلاف الباثانيين الحاليين فى حوض نهر هلمند .

كذلك غزا الساكا وهو فوج آخر من الشعوب التى تتكلم الإيرانية بلاد أفغانستان فى القرن الثاني قبل الميلاد ، واستقرت بعض قبائلهم فى حوض نهر هلمند ويستدل على ذلك باسم سيتان أو سجستان وهو اسم الذى يحمله الإقليم حتى اليوم بدلا من اسمه القديم وهو سارانجيا .

واوغل بعض هذه القبائل الإيرانية فى شبه القارة الهندية ولا تزال دماؤهم وبعض طباعهم تجرى فى عروق المهرات الذين يقطنون حاليا فى المناطق المرتفعة فيما وراء بومباى

ومن أفواج الرحل الذين هجروا آسيا الوسطى فى أثر الساكا جماعات اليوشى فقد استقر هؤلاء فى المنطقة الواقعة بين نهر أموداريا وجبال هندوكوش وكانت تعرف من قبل باسم بقطريا وهى اليوم جزء من أفغانستان . وفى القرن الأول من العصر المسيحى نجحت إحدى قبائل اليوشى ، وهى قبيلة الكوشان فى تأسيس امبراطورية ضمت داخل حدودها جبل هندوكوش وامتدت من الشاطىء الجنوبى لنهر آموداريا حتى الشاطىء الغربى لنهر جمنا . وفى خلال التسعة عشر قرنا الماضية تعاقبت الآلهة والديانات على الامبراطورية الكوشانية ، فقد حكم هذه المنطقة فى القرن الحادى عشر « محمود الغزنوى » مؤسس الدولة الغزنوية ، وهو من أصل تركي ، كما حكمها فى القرن الثامن عشر «أحمد شاه عبدللى» وهو من أصل أفغاني .

وفى القرن الخامس الميلادى غزا فرع من قبائل الهون الهند عن طريق أفغانستان ، وفي نفس الوقت غادرت جماعات أخرى من الهون موطنها فى آسيا الوسطى واتجهت غربا فغزت أوروبا . ورغم ما كان عليه الهون من وحشية ونزوع إلى التدمير ، فقد تفوق عليهم المغول الذين غزوا أفغانستان فى القرن الثالث عشر ، كما غزوا جانباً كبيراً من أوراسيا ، ولم ينج من شرهم إلا الهند وأوروبا الغربية . وفى أوائل القرن السادس عشر تحرك شعب تركي آخر – وهو شعب الأوزبك – من أواسط سيبريا ، واحتل شمال أفغانستان وما يسمى الآن بجمهورية أوزبكستان السوفيتية على الشاطىء المقابل من نهر آموداريا . وقد فشل هؤلاء الأوزبك فى عبور جبل هندوكوش ، ولكنهم من ناحية أخرى غيروا وجه التاريخ فى شبه القارة الهندية ، ذلك أنهم دفعوا امامهم بقايا رجال تيمورلنك الذين كانوا من قبل حكاما لآسيا الوسطى . وهؤلاء التيموريون الفارون أسسوا امبراطورية المغول فى الهند .

ولم تقف شعوب أفغانستان موقف المتفرج على هذه الهجرات التى مرت ببلادها، بل ساهموا بنصيب فى غزو الهند . فالغوريون الذين حلوا محل الترك الغزنويين فى القرن الثانى عشر الميلادى كانوا فى الأصل من سكان المرتفعات الوسطى بأفغانستان . وقد وسعوا أملاك المسلمين فى شمال الهند، فامتدت من السند إلى حوض الكنج . وبعد وفاة بابر مؤسس دولة المغول فى الهندستان، تحدى خلفه شيرشاه سور وهو بنغالي مسلم من أصل أفغاني . وقد ظل همايون ابن بابر مطروداً من البلاد طوال حكم شيرشاه .

وعلى الرغم من أن حكم شيرشاه فى هندستان كان قصيراً، إلا أنه استطاع تنظيم المواصلات الامبراطورية كما نظم الضرائب . وكانت نظمه من الكمال بحيث واصل المغول استخدامها بعد عودتهم إلى حكم البلاد، بل إن البريطانيين أنفسهم — وهم ورثة الحكم المغولى فى الهند — طبقوا النظم التى وضعها شيرشاه . وفى عصر الفوضى فى هندوستان حيث كان حكم المغول آخذاً فى الاضمحلال، ولم يكن الحكم البريطاني قد استقر فى البلاد بعد، إجتاحت أفواج من الأفغان بلاد الهند، وهؤلاء هم المعروفون باسم « الروهيلدو » واستقروا فيما هو الآن ولاية أوتار برادش الهندية .

إن مثل هذه الهجرات التى تقوم بها الشعوب من وقت لآخر قد تغير مجرى التاريخ، ولكن الأثر الأكبر يخلفه انتشار الحضارة والدين، وقد كان للأفغان من كل منهما نصيب .

فعندما بسطت إمبراطورية الأخيميين الفارسية سلطانها على أفغانستان وحوض السند فى خلال القرن السادس قبل الميلاد وبعده أحضرت معها إلى هذه البلاد إحدى لغاتها الرسمية وهى الآرامية، غير أن استخدام اللغة الآرامية كلغة تفاهم دولية لم يدم بعد أن قضى الاسكندر الأكبر على أول امبراطورية فارسية . غير أنه قد اكتشف حديثاً فى مدينة قندهار كتابات بالإغريقية والآرامية من عهد الامبراطور الهندى أسوكا فى القرن الثالث قبل الميلاد .

ولكن الأبجدية الآرامية أحرزت بعد سقوط الامبراطورية الفارسية — انتصارات تضاءل بجانبها انتصارات جنكيز خان نفسه .

وقد ظلت الابجدية الآرامية تستعمل فى غرب إيران تحت اسم جديد وهو البهلوية ، ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الابجدية الآرامية قد انتقلت عن طريق أفغانستان إلى شبه القارة الهندية فى الجنوب ، كما انتقلت جهة الشمال الشرقى عبر قارة آسيا . وفى شمال غرب الهند أصبحت الابجدية الآرامية أصلا للخاروشتية التى استخدمت فى كتابة بعض اللهجات المتفرعة من استكريتية وانتقلت الآرامية نحو الشمال الشرقى عبر نهر آموردوريا فاستخدمت فى كتابة اللغات الإيرانية فى آسيا الوسطى ، كما استخدمت فى كتابة الصغدية وهى إحدى اللغات التركية فى آسيا الوسطى ، وأخيراً استخدمت فى كتابة لغات المغول والمانشو .

وإن أردت التثبت من ذلك فما عليك إلا أن تزور « معبد السماء » الذى أقامه أباطرة المانشو فى بكين ، وهناك تجد كتابات بلغات ثلاث وهى الصينية وقد كتبت بالنقوش الصينية ، ثم لغة المانشو والمغولية ، وقد كتبتا بالأبجدية الآرامية .

وبعد أن انتهى الأغريق من القضاء على الامبراطورية الفارسية الأولى ، اتجهوا شرقاً حتى بلغوا منطقة باروبانيزاداى « منطقة جبال هندوكوش الحالية » وفى هذه المنطقة وضعوا بذور حضارتهم ، كما وضعوها فى إقليم بقطريا وفى المنطقة الواقعة بين جبال هندوكوش ونهر أموردوريا ، وقد استقرت المدنية اليونانية فى هذه المنطقه عدة قرون .

وحوالي عام ١٨٣ قبل الميلاد انتهز ديمتريوس ملك بقطريا الأغريقى فرصة سقوط إمبراطورية موريا فى الهند ، فعبر جبال هندوكوش وغزا المنطقة التى تمثلها الآن جنوب أفغانستان والبنجاب وقد ظل حكم الأغريق سائداً فى بقطريا أكثر من نصف قرن وفى المنطقة الواقعة جنوب هندوكوش طوال قرنين ، وشاهد ذلك اليوم النقود الأغريقية التى تحمل صورة الملك الأغريقى وعلى الرغم من انتهاء حكم الأغريق فى هذه المنطقة فقد بقيت حضارتهم هناك فترة أخرى . ذلك أن الكوشانى ـ وقد أسسوا ملكا عريضاً دام أكثر من عهد امبراطورية الأغريق فى بقطريا ـ كانوا من محبى الهللينية على الرغم من أنهم اتخذوا لغة بقطريا الإيرانية كلغة رسمية لامبراطوريتهم بدلا من الأغريقية ولكنهم كانوا يكتبون

لغتهم البقطريانية بالابجدية الأغريقية . ويثبت ذلك اكتشاف آثار بقطريانية بالحروف الأغريقية على معبد النار من عهد الامبراطور كانيشكا الكوشاني فى سرخ كوتل فى الطريق إلى بلخ عبر ممرات جبال هندوكوش والآثار الفنية الباقية من مدرسة جاندهارا التى ازدهرت فى عهد إمبراطورية كوشان فى عواصم هذه الامبراطورية الثلاث وهى بجرام وبشاور وناكسيلا . ويبدو أن الفن الأغريقى خلف آثارا عميقة فى مدرسة جاندهارا الكوشانية عن طريقين : أحدهما عبر جبال هندوكوش عن طريق بقطريا والآخر عبر المحيط الهندى قادما من الأسكندرية وما أن تأسست إمبراطورية كوشان فى القرن الأول الميلادى ، حتى كان البحارة اليونانيون يطوون المحيط الهندى طيا متنقلين إليه من الموانى المصرية على البحر الأحمر . . وعرف هؤلاء البحارة سر الرياح الموسمية فاستخدموها فى الوصول رأساً إلى دلتا نهر السند بدلا من التزام ساحل بلاد العرب وبلوخستان ، وكان تقصير المسافة الذى حققته مهارة الأغريق فى الملاحة أكبر حافز لتنشيط التجارة بين وادى السند والنيل .

كذلك أعاد التاريخ نفسه فى ملتقى طرق المواصلات فى شرق العالم القديم بعد أن قضي العرب المسلمون على الامبراطورية الساسانية الفارسية فى القرن السابع الميلادى . ذلك أن العرب ـ مثلهم فى ذلك مثل الأغريق قبلهم بألف عام ـ ثبتوا أقدامهم فى المنطقة الواقعة بين آموردايا وجبال هندوكوش وهى المنطقة التى عرفت يوما باسم بقطريا . وكما فعل الأغريق من قبل فإن العرب شقوا طريقهم فوق جبال هندوكوش الوسطى وغزوا شبه القارة الهندية وكانت أفغانستان المعبر الذى مر به المسلمون فى طريقهم إلى الهند مثلما فعل الهلليليون « الأغريق » .

هكذا يرى القارىء أن كل تلك الموجات التى قامت بها الشعوب والامبراطوريات والحضارات والديانات التى ذكرناها فى هذا الفصل ، كانت كلها حركات عبر أفغانستان إلى شبه القارة الهندية ومن أقاليم خارجية عن الهند . ولكن كان يقابل ذلك أيضاً حركات خرجت من الهند إلى العالم الخارجى مارة بأفغانستان ومن أشد هذه ظهوراً فى تاريخ البشرية انتشار الديانة البوذية فى شرق آسيا .

وعندما اصبحت الامبراطورية الفارسية الأولى نهباً للمتزاحمين على هيكلها المتهدم بعد موت الإسكندر ، كان بين هؤلاء شاندراجوبتا موريا الذى أسس امبراطورية هندية . بدأ شندراجوبتا عمله بضم المناطق التى وقعت تحت حكم الأسكندر لفترة وجيزة فى حوض السند . واتبع ذلك بادماج هذه المناطق فى مملكة ماجادها فى حوض الكنج . ثم وسع أملاكه غرباً بعقد اتفاق مع سليوقوس المقدوني « المظفر » وتنفيذاً للاتفاق سلم شاندراجوبتا إلى سليوقوس خمسمائة فيل أن يستخدمها فى الحرب ضد خصمه الأغريقى العنيد انتيجونس « الأعور » وفى مقابل ذلك تنازل سليوقوس لشندراجوبتا عن منطقة واسعة من أراضى فارس السابقة غرب السند ، وجنوب هندوكوش . هذا وأن الكتابة الأثرية التى اكتشفت حديثاً فى تندهار ، والتى خلفها آسوكا حفيد شندراجوبتا ، تدل على أن تندهار لابد وأنها كانت تقع على الجانب الهندى لخط الحدود بين الأملاك المورية (الهندية) والأملاك السلوقية (الأغريقية) ، وقد كان ماحققه شندراجوبتا من نجاح فى تكوين إمبراطورية ذات أثر وقتى ، فلم تمض على تأسيسها مائة وخمسون سنة حتى تمزقت وتوغل الأغريق البقطريانيون فى الهند إلى ما بعد حدود فتوحات الأسكندر . ولكن أملاك الهند امتدت خارج حدودها عندما اعتنق الامبراطور أسوكا حفيد شاندراجوبتا الديانة البوذية . وتدل بعض الكتابات الأثرية التى خلفها أسوكا على أنه أرسل عدداً من المبشرين لنشر البوذية فى الدول التى أسسها القواد الأغريق على أنقاض الامبراطورية الفارسية . وليس لدينا ما يدل على مدى الأثر الذى خلفه التبشير بالبوذية فى العالم الهلينى (الأغريقى) ولكن من المؤكد أن اعتناق أسوكا للبوذية ثبت أقدام هذه الديانة فى الهند لستة قرون تلت . وقد كان لها من القوة ما مكنها من أن تطوى تحت جناحها عدة موجات متتالية من الغزاة القادمين من وراء جبال هندوكوش بعد سقوط امبراطورية موريا ، فنجد ميناندر وهو من أهم حكام الأغريق البقطريانيين فى الهند خلال القرن الثاني قبل الميلاد ، يظهر فى الأسفار البوذية باعتبارها طرفا فى محاورة عنوانها « مناظرات ميليندا » ، وفى أواخر القرن الأول وأوائل

القرن الثاني الميلادى ، اصبح كانيشكا أعظم الأباطرة الكوشانيين نصيرا للبوذية ، ولو أنه لم يعتنقها صراحة .

هكذا كانت امبراطورية كوشاني الطريق الرئيسى الذى سلكته البوذية فى طريقها من الهند إلى ما يسمى الآن آسيا الوسطى السوفيتية وسينكيانج وشمال غرب الصين ، ثم إلي كوريا واليابان وفيتنام أما دور أفغانستان كمركز اتصال فى هذا الموضوع فهو أجل من أن يذكره .

إن هذا الطريق الذى سلكته البوذية من الهند إلى الصين عبر أفغانستان يبدو على الخريطة طريقاً دائرياً غاية للانتقال على جوانب التبت بدلا من الانتقال رأساً من النيبال إلي إقليم يوناني . جواب ذلك أن جنوب شرق آسيا الذى تشترك فيه الصين والهند فى وقتنا الحاضر كان خارجا عن نطاق العالم المتمدين ، وقتما كانت البوذية فى طريقها إلى الانتشار فى خارج الهند . وفى عصر الأمبراطور كانيشكا ، كانت الحضارة الهندية فى بداية عهدها فيما يسمى الآن كمبوديا وآنام . أما اليونان فلم تتخلص من حياة الهمجية وتندمج فى الصين على أيدى الغزاة المغول إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى . وهكذا تجد أن الطريق بين الهند والصين عبر أفغانستان كان أقدم طرق الاتصال بين البلدين ولو أنه كان طويلا ملتفاً . أن ما قدمنا للقارىء حتى الآن ليس إلا بعض مقتطفات لإيضاح الدور الذى لعبته أفغانستان بصفتها مركزا للاتصال ، ولعلها كافية لكى تثبت لدارسى الموضوعات الإنسانية أن أفغانستان لا غنى عنها لاستكمال هذه الدراسة .

٢ — الى نيودلهى بالنفاثة

غادرت لندن الساعة التاسعة والنصف صباحا ، فى طريقى إلي نيو دلهى وفى وقت الظهر كانت الطائرة تمر فوق بحر أيونيا بين إيطاليا واليونان ، وعندما مرت الطائرة فوق مدينة بيرتا استعدت ذكريات الماضي البعيد ، فى سنة ١٦٨ قبل الميلاد كانت أنباء النصر فى المعارك تستغرق أسبوعين حتى تصل إلى روما ، أما اليوم فقد قطعنا المسافة بين روما وبيرتا فى ساعة وعشرين دقيقة مرت طائرتنا فوق تراقيا ثم اسطنبول ثم طهران ثم أفغانستان وأخيراً وصلنا نيودلهى الساعة الحادية عشرة مساء بتوقيت لندن .

تحدث الشاعر اليونانى سوفوكليس عن صنعة الإنسان منذ خمسة وعشرين قرناً فقال :

« ان ما يصدر عن صنعته من مهارة يفوق خياله » ، ولم يكن الإنسان حينذاك قد اخترع حتى طاحونة الهواء ، واليوم يصدق قول سوفوكليس فإن تلك الآلة نقلتنا من لندن إلى نيودلهى فى ١٣½ ساعة ولكنى رغم ذلك لست قانعاً بفن هذا الصانع الماهر (الإنسان) ولن أقنع حتى يخرج لنا آلة تنقلنا من لندن إلى نيودلهى فى نهار واحد ، على أن يكون ذلك فوق سطح الأرض لا بين طيات السماء كما فعلت بنا النفاثة . بل إني أطمع من هذا الصانع الماهر فى أن يمكنني من هذه الرحلة الطويلة سيراً علي الأقدام لأرى كل ماتروق لى رؤيته فى طريقى وأن أختتم رحلتى وأنا مكتمل النشاط مثلما بدأتها هناك ، هناك فقط ، أعرف بأن الإنسان حقا صانع ماهر .

أن الانتقال السريع فى الهواء ليس حلا مرضياً ، فأشد ما كانت نفسي شوقاً قبل بدء الرحلة للاستمتاع بجبال بيليون وأوسا وأوليمب ، وما يليها من أثوس وروودوب ، ولكن ما أن عبرنا خليج تراتو حتى رأيتنى فوق ساحل طويل

وبعدها غمرنا ضباب كثيف حتى اقتربنا من مطار اسطنبول . لم أرشيئا من اليونان ولا الأناضول ولا إيران ولا أفغانستان وماذا يهمني من التحليق فوق بحيرة أورميا طالما أني لم أرها ؟ .

لقد حجبت السحب عند ناظري نابلي وبركان فيزوف ومدينة بومبي التاريخية . وعند انتقالنا من مطار دلهي إلى المدينة مررت بسائق تلك العربات التي يجرها الثيران ، وهنا تساءلت · أليس هذا الرجل أسعد مني حظاً حيث تتاح له الفرصة ليرى بنفسه كل شيء أثناء رحلته القصيرة ؟ ونصيحتي لكم أيها الفنيون أن تعملوا وتواصلوا العمل . فأنتم لا تزالون في البداية فان استطعتم أن تجعلوني أستمتع من الطائرة بمناظر العالم التي يستمتع بها سائق العربة والثيران فلكم مني أحسن تقدير . وأني مستبق تحفظاتي على ما قاله سوفوكليس للانسان من عبارات المدح والثناء حتى يحقق ما أصبو إليه .

٢ — ملتان

قد يفوق الواقع الخيال . تلك كانت مشاعرى عندما وصلنا مدينة ملتان . لقد رأيت المدينة أمس فقط بعد تشوق لرؤياها لازمنى خمسة وعشرين عاماً ، منذ أن قرأت مؤلف أدوارد الممتع عن حصار ملتان عام ١٨٤٨ كانت تدور فى راسى خواطر عن مولراج السيخى حاكم ملتان ، وعن الداود بوتزا حلفاء أدوارد والمسلمين ، وعبور أدوارد للسند وتكوين جيش بلا تدريب ، وأخيراً انهيار مولراج ونهايته . كل هذا كان يدور برأسى ، وهو جزء هام من التاريخ لأنه المعركة الثانية بين البريطانيين والسنج .

أن مولتان هى مدينة المالى ، وهى المدينة التى جرح فيها الاسكندر الأكبر عندما كان يحاول هو وجنوده أن ينسفوها نسفاً ، ثم انتقم جنده المقدونيون له أفظع انتقام .

لقد هاجم الاسكندر حصون المدينة ولم يهاجم المدينة نفسها ، وهذا هو سر الهزيمة ، فلقد وقفت بالأمس علي أعلى مرتفع فى هذا الحصن وإذا بى أطل على منحدر شديد ترقد المدينة عند نهايته السفلى وفى وقفتى هذه تذكرت الاسكندر والقائدالانجليزى أدوارد وما بينهما من عرب مسلمين وأتراك مسلمين ومحمود الغزنوى وغيرهم من الغزاة الذين تقلبوا علي ملتان رغم قوة حصونها الطبيعية .

ولكن ما يسترعى نظرك فى هذه المدينة هو التاريخ الدينى لا التاريخ العسكرى . فان المباني التى تشرف على الحصن هى مقابر بهاء الحق وجده . كان السلطان محمود طغلق قد بنى المقبرة لنفسه ، ولما مات الولى — وكان المستشار الروحى للسلطان — تنازل السلطان عن مقبرته للولى ، وبنى لنفسه مقبرة أخرى فى مدينة طغلق اباد .

لقد زرت ضريح بهاء الحق وضريح الشاه يوسف الجرديزى. ولقد أكرم آل الجرديزى وفادتي فى « الديوان خانة » أى دار الضيافة . ومن الغريب ان سمى ولى الله الشاه يوسف لأن اسمى يوسف ، وكذلك ستالين سميه لأن اسمه يوسف.

والاسطورة المتداولة هى أنه منذ تسعة قرون مضت وفد الشـاه يوسف الجرديزى على مولتان راكبا أسدا وفى قبضته ثعبان حتى يستخدمه كالسوط ليلهب به ظهر الأسد ، وهناك زوج من الحمام يرفرف حول رأسه ، وقد ركب الشاه يوسف أسده على طول الطريق من جرديز فى أفغانستان حتى ملتان. وأحضر معه إلى ملتان تعاليم اللأئمة الاثنى عشر من الشيعة ، وفى خلال السنوات التسعمائة تكاثر نسل الجرديزى حتى شمل ربع مدينة ملتان وتكاثر الحمام حتى ليغطى سطوح دور آل الجرديزى .

وضريح الجرديزى مكسوا بالقرميد الأزرق وهو من عهد الامبراطور همايون المغولى ، وفى السقف فتحات تسمح للحمام بالاقتراب من رفات ولي الله.

وهكذا قضى آل الجرديرى تسعمائة عام متصلة ، فى هذه البقعة من الأرض والدنيا من حولهم فى تغيير مطرد .

٤ — الأجواء السبعة

ان جغرافيي العرب القدماء يتبعون الأغريق فى تقسيم هواء الأرض إلى سبعة أجواء تبدأ بالحار وتنتهى بالمتجمد . وأحس اني مررت بهذه الأجواء السبعة أثناء رحلتي من ملتان إلى بشاور وتراني اليوم في بشاور ارتدى معطف انجليزى وصديريه من الصوف . وماء المطر يتساقط وكأنه الجمد والسحب المحملة بالامطار تتحرك نحونا قادمة من الجبال الغربية . وقبل ذلك باسبوع وانا فى طريق من ملتان إلى لاهور لم أكن اطيق ملابسى الصيفية الخفيفة ، وكنت اتصبب عرقا رغم اني ألبس سراويل قصيرة. اخيرا آمنت بالأجواء السبعة وعرفت أولها وآخرها .

ان الدنيا فيما يحيط بمدينة بشاور فى تغير مطرد . فمنذ زمن ليس ببعيد كان المسافر عن طريق ممر خيبر ملزما بدفع أتاوة لقبائل الأفريدى وإلا لقى حتفه ، وقلما بقى على قيد الحيـاة حينذاك من تحدى الإفريدى ، حتى ولو كان امبراطورا . أما اليوم فتستطيع أن تخترق المرور ذهابا وجيئة فى سيارات عامة يقودها أبناء قبائل الأفريدى وبدلا من دفع الاتاوة تدفع أجر السيارة .

وعلى الحدود بين أفغانستان وباكستان وجدنا جمعاً كبيراً من الناس ظننتهم من الحجاج ، ولـكن تبين لى فيما بعد أنهم ذاهبون إلى سوق مدينة لاندىكوتل حيث تعرض أباريق الشاى الروسية وأجهزة الراديو الألمـانية والمنسوجات الحريرية الهندية بأسعار عالية .

وكثيرا ما يتهرب التجار من دفع الرسوم الجمركية للحكومة الباكستانية ولـكنها تتغافل عن ذلك قصدا ، كي تتيح الفرصة لسكان تلك المناطق الجبلية المقفرة من كسب عيشهم ، وإلا عادوا قطاع طرق كما كانوا من قبل أو اتجهوا إلى زراعة الخشخاش للحصول على مادة الأفيون .

كانت هذه القبائل الجبلية فى الأيام المـاضية تقيس قوتها وثراءها بمـا تملك من البنادق، ولـكنها اليوم تقيسها بمـا لديها من اللوريات وسيارات الأومنيبوس .

وفى مقدمة هذه القبائل الأفريدى والشنوارى ، أما قبـائل اليوسف زاى فتعيش على الزراعة فى الوديان الخصبة .

٥ — هزارة

الطلبة الباكستانيون الذين يتلقون علومهم العسكرية فى كاكل يتلقون تعليما عسكريا على ايدى ضباطهم ، ولكنهم بجانب ذلك يتلقون دروساً على أيدى الطبيعة فى فن تقدير الجمال . ذلك أن المنطقة المحيطة بكاكل تترك فى النفس أثرا لا ينسى . فالاكاديمية تقوم على قمة منحدر يهبط على شكل مدرج تحيط به الجبال من كل ناحية . ومن هذه المنطقة القليلة الارتفاع نشاهد على بعد القمم الشاهقة التى تنبئك بأنك على قرب من حائط البامير أو سقف الدنيا ، كما يطلق عليها البعض فإذا ما درت بناظريك يمنة شهدت بساطاً سريعا اخضر وقد سرت بين خضرته جداول كاللجينى تغذيها المجارى المائية المتدفقة من الجبال .

دعيت فى ذلك اليوم لالقاء محاضرة فى الاكاديمية وكان موضوعها « الأمن الدولى ونزع السلاح فى العصر الذرى » وقد لاحظت على طلبة الكلية الحربية أن وقتهم مقسم مناصفة بين العلوم العسكرية والعلوم الثقافية كذلك لاحظت أن حوالى ثلث هيئة التدريس من غير العسكريين . والواقع أن اكاديمية كاكل العسكرية من المؤسسات التعليمية الهامة التى يجب أن تعتز بها باكستان وتحتفظ بها حتى لو استطاع العالم أن يحقق نزع السلاح .

ان كلمة هزارة معناها بالفارسية « ألف » هذا على الرغم من أن سكان هذه البلاد لا يتكلمون اللغة الفارسية . أخيرا استطعت أن اكتشف السر فالألف هنا تشير إلى ألف قطيع من الغنم والماعز والجاموس تنتقل ذهابا وجيئة بين بشاور وهزارة . ان رعاة الباوندة الرحل يقضون الشتاء فى سهول باكستان والهند ، كما يقضون الصيف فى أفغانستان ، وهم الآن فى طريقهم إلى منتجعهم الصيفى عن طريق ممر خيبر .

فى طريق عودتنا مررنا بهاريبور ، وهناك اتجهنا غربا كي نكون على

مقربة من نهر السند . وفى طريقنا إلى السند سرنا بجانب أحد نهيراته الصغيرة الذى كانت مياهه تتدافع فى سرعة عظيمة حتى تصل إلى النهر الكبير ، وعند مدينة أتوك شاهدنا نهر السند يمر بخانق ضيق يكاد يكتم انفاسه ، وعلى هذا الخانق اقيم كوبرى ضخم . وما أن عبرنا الكوبرى حتى أصبح لا يفصل بيننا وبين السند غير حقول الخشخاش .

فى هذا المكان معبر آخر للنهر مكوناً من مجموعة من القوارب ، وعلى قرب من هذه البقعة كان الإسكندر الأكبر قد عبر نهر السند ليضم قواته إلى قوات حليفه ملك تاكسيلا ، ثم يسيران معا لمحاربة الملك بوروس للاستيلاء على معبر لنهر جهيلم . هذا المكان هو زاوية محصورة بين نهرى السند وكابول .

٦ — نهر السند في السلاسل والأغلال

مرة ثانية انحدر عائداً من المناطق القبلية إلي اخرى نظمتها يد الإنسان فأجدني على الحافة العليا لمدينة كوهات · القيت نظرة على السهل لذى يمتد على بعد كبير أسفل مواطىء قدمي وقد غمرته الخضرة وبدت به مدينة كوهات ، ومن وراء كوهات تماوج سطح الأرض ارتفاعا وانخفاضاً من سلسلة جبـل سليمان حتي وادى السند لم يفتني في هذه المرة أن آبادر بالانحدار إلى أسفل الجبل لأشاهد السند في قيوده وأغلاله . ولن تـكون هذه المرة الأخيرة التي أتخذ فيها سبيلي داخل ذلك القوس الجبلي الضخم فسوف أعود إليـه في طريقي إلى وادي كورام وإلى كوتا ومن هناك أعود إلى البحر ماراً ببلوخستان. قيد السندق مجراه عند نقطتين وهما أتوك وقلعة باغ ، فعنـد أتوك يضيق المجرى فجأة ، ولـكن ما أن يبلغ قلعة باغ حتى تفك قيوده ويتسع المجرى متدرجاً في الاتساع حتى يصل عرضه ميلا كاملا ثم ينحدر هابطا على طول امتـداد إقليم السند كنت قد أعددت نفسي في ذلك اليوم لزيارة الـكوبرى المقام على السند عنـد خوشالجار ، وعلى أن أقطع جانباً من الرحلة في الممر الضيق الذى يجرى فيه السند في هذه المنطقة . وتساءلت ترى هل قدر لنا أن نخرج سالمين بعد نهاية المرحلة الأولى من عبور هذا الممر الضيق ؟ أهو مهبط لولبي ؟ نعم ! تلك هي العبارة التي تؤدى المعنى. لقد وقف شعر رأسي من الرعب أثناء الهبوط وذكرني في هذا الموقف بالطريق حول شبه جزيرة سورنتا جنوب مدينة نابلي الإيطالية إن كان القارىء قد غامر ذات يوم بدخول مصيدة الموت الإيطالية في شبه جزيرة سورنتا لاستطاع أن يتصور الخطر الذى يحدق بمن يهبط من ممر كوهات إلي مدينة كوهات فالجبل ينحدر بشدة إلى السهل في درجات هائلة وأنت في هبوطك لا بد وأن تدور حول هذه الدرجات المرعبة . أن سيارتك في كل لحظة علي حافة الهاوية ولا بد من اعصاب فولاذية لمن يقود مثل هذه السيارة ومن يركبها .

وما انتهينا من زيارة مدينة كوهات والسهل المحيط بها حتى ألقينا أنفسنا مرة أخرى وسط الصخور السوداء التى لولا صمتها الطويل لا بتلعت سيارتنا منهما أوتى السائق من مهارة .

ذلك هو المكان الذى يحصر نهر السند وكأنه عملاق هائل مقيد بالسلاسل والأغلال ، أخيراً انتهينا من هذه التجربة المفزعة ووقفنا على الكوبرى فوق نهر السند . من الغريب أنك عندما تنظر إلى ماء النهر من أعلى الكوبرى يخيل لك أنه بطىء التيار · ولكن إذا أمعنت النظر شاهدت دوامات تدور حول بعضها فى حركة سريعة وكأنها فى صراع محاولة التخلص من ذلك السجن المخيف .

وعلى صخرة بارزة رأينا راعياً خلف قطيع من البقر والأغنام . أما البقر فقد وقف هادئاً تحت الشمس الساطعة وأما الأغنام فقد كانت تتزاحم وتتلاصق بعضها البعض خوفا من خطر قادم . فما هو الخطر ؟ لقد أخذ الراعى يحصرها جماعات ثم يدفع بكل جماعة فى ماء النهر بين الصخور البارزة . ياله من مجنون . أم هو تلك الروح الشريرة التى قذفت بخنازير جادارين لتلقى حتفها فى بحر الجليل طبقاً لما تقصه الأسفار المقدسة ، ولكن الخنازير غرقت فى بحر الجليل رغم خفة الشعر ، فما بالك بتلك النعاج الكثيفة الجز ؟ لا بد لها من الهلاك . ولكن لا ليس الراعى بمجنون ولا هو يحوى بين جنبيه روحا شريرة ! إنه يعرف عمله جيداً ، فقد آن الأوان لتنظيف صوف الغنم ، وخير طريق لذلك هو غمر النعاج بأصوافها فى ماء السند .

ذكرني هذا الحادث بأغنامنا الانجليزية عندما نغسلها فى حوض من الأسمنت لتنظيف صوفها . وقلت لنفسي . لو أن أغنامنا الانجليزية مرت بتلك التجربة القاسية التى تلاقيها أغنام باكستان لماتت فزعاً قبل أن تموت غرقا .

ولكننا فى الشرق الأوسط وهذه أغنامه تقفز فى ماء النهر فتغوص حتى ليخيل لك أنها غرقت . ولكنها تطفو على سطح الماء ثم تكافح متسلقة الشاطىء الصخرى حتى تبلغ الجانب الآخر من النهر فى أمان .

زادني في هـذا المنظر اعتقاداً بان سلالات الشرق الأوسط اكثر تفوقا وأقدر على مصارعة الأهوال من السلالات الأنجليزية .

ذكرني هذا بعبارة كان الشاعر الياباني كوشال خان الذى عاش في القرن السابع عشر قد وصف بها شجاعة قومه فقال إن لهم شجاعة الأغنام وكنت قد أنكرت من الشاعر هذا التشبيه الغريب . ولكن بعد أن رأيت ما رأيت آمنت بأن كوشال خان على حق .

---

٧ — شبيهة أريحا

لم أر فى حياتى مدينة مثل أليس ، إنها مدينة الخيال ، ولكنى شاهدت اليوم شبيهة لمدينة أريحا التاريخية . أقف الآن على قمة احد المرتفعين العظيمين قرب تشارسدا . العاصمة القديمة لإمبراطورية جاندارا ، قبل أن ينقل أباطرة كوشان عاصمة ملكهم إلى بشاور . إن مرتفعات تشارسدا تطل على مساحة واسعة ، تحيط بها ثلاث سلاسل جبلية من ثلاث جهات ، أما الجهة الرابعة فتطل على نهر السند . ومن هذا المكان تستطيع أن تشرف على سهل فسيح تكسوه الخضرة اليانعة ، ويمتد مسافات بعيدة فى جميع الاتجاهات . ها هو أمام ناظريك صف طويل من اشجار الحور ووراءه خط طويل من الجرف الرملية ، وهما معاً يشيران إلى وجود أحد القنوات المتفرعة من نهر كابل ، وهو فى مجراه المتعرج عبر السهل حتى يلتقى أخيراً بنهر السند . وهناك عدة قنوات من هذا النوع تربط نهرى كابل وسوات ، وهى شبيهة بمجارى أوروبا الشمالية مثل شبرول وآفون وأوز وألب . ومن تلك المجارى المائية فى حوض السند تتفرع قنوات لا حصر لها لرى أراضى السهل الخصبة . والحقول هنا تنتج القمح والأرز وقصب السكر بجانب حدائق الفاكهة من المشمش والبرتقال والبرقوق والكمثرى . وإن كان الحظ قد أسعدك فزرت سهل لومبارديا وغوطة دمشق فاجمع بين الطرفين فى منظر واحد ، هوما تشاهده الآن فى إقليم جاندارا . ولكن جاندارا تمتاز بمنظر فريد لا يشاركها فيه أى بلد آخر . ذلك أن أنهارها وجداولها تشق طريقها بعنف بين السلاسل الجبلية ثم تنساب فى رفق ولين فوق السهل الفسيح .

لقد شاهدت نهر كابل يندفع متدفقاً نحو ورسك ، كما شاهدت السند فى مثل هذا العنف والجرة قرب آمب ، واليوم أشاهد نهر سوات بدوره يهدر متدفقاً نحو أباظاى . ذلك أن الجدار الصخرى الذى يخنق مجراه عدة أميال

يتفرج فجأة فتندفع المياه كالسيل الجارف وكأنها قذيفة انطلقت من فوهة مدفع . ولقد قدرت أن نهر سوات الذى تغذيه الثلوج الذائبة فى منطقة سترال النائيـة يحمل من المـاء مثلما يحمل نهر التيمس عند مدينة ريدنج ، ولـكن لاتنسى أن سوات ليست إلا فرعاً من نهيرات السند ، لا عجب إن توافرت مياه سهل السند ولا غرابة إن قامت مشروعات الرى ، الواحد فى اثر الآخر للاستفادة من هذه الـكميات الضخمة من المياه الضائعة فى البحر .

طالمـا كان سهل السند بثروته الزراعيـة الماثلة مفتاحا للطريق الذى يربط شبه القارة الهندية بقية العالم القديم . ويمـكنك ان تقيس طول الزمن الذى ظلت فيه جاندارا تلعب دورها التاريخى بارتفاع الأكمة التي تقوم عليها تشارسدا فهذه الأكمة تـكونت من عدة طبقات من خرائب المبانى الأثرية القديمة . كانت هذه المبـانى الأثرية من اللبن المجفف فى الشمس ، فتحولت إلى رماد فوق رماد حتى أصبحت شبيهة بالأكمة التى قامت عليها مدينة أريحا . ووجودها يمثل سلسلة متصلة من تاريخ الإنسانية تعود بنا إلى الوراء حوالى ثلاثة آلاف عام . والفرق بين تشارسدا وأريحا أن أريحا أكثر إيغالا فى القدم . وهناك فرق آخر ، وهو أن حقول أريحا كانت تستقى من عين ماء ، أما تشارسدا فتغذيها مجموعة من الأنهار التى تبعث الخصب والنماء بسهوله الفسيحة المحيطة بها .

وقد توقفت أكمة تشارسدا عن النمو منذ ألف وخمسمائة عام . وقد يرجع سبب ذلك إلى انها لم تنهض من كبوتها بعد أن اجتاحتها جحافل الهون فى القرنين الخامس والسادس الميلادى . غير أن ما فات تشارسدا من آثار المدنية التالية لذلك التاريخ تجده ماثلا فى قلعة شابقادار ، ذلك أن الطابق العلوى منها طراز بريطانى من عهد الملـكة فيكتوريا ، أما الطابق السفلى فهو من صنع الشيخ فى أوائل القرن التاسع عشر . ويقوم على حراسة قلعة تشارسدا فى الوقت الحاضر قـوات الحدود الباكستانية .

لقد أقبل البريطانيون وادبروا وغزا المسيح وتقهقروا وبقى الحصن قائمـا يتحدى الزمن ليشهد على أن جهود البشر وإن عظمت مصيرها إلى الزوال . ومع ذلك فربمـا يقدر لبعض جهود الانسان الخلود . سر شرقا من تشارسدا إلى

تخت بهائی لتجد نفسك أمام آثار تحدث بطش الزمان ، وتخت بهائی جبل منعزل يرتفع عموديا فوق قرية شهر بهلول . إنه ليس على ارتفاع عظيم إذا ما قورن بسلاسل هندوكوش أو الهمالايا التي تكشفها العين من قمة تخت بهائی عندما تكون السماء صافية . ولكن ارتفاعه العمودى وجوانبه الشديدة الانحدار تجعله يبدو كجبل عال ، وعلى أحد جوانبه الشديدة الانحدار يقوم معبد بوذى .

وفى هذا المكان الموحش حقق الكهنة البوذيون أملهم فى الرياضة الروحية العنيفة . فقد خلفوا وراءهم عالم الشهوة والملذات وقنعوا بالصفاء الروحى فى عالمهم المنعزل . وإنك لتحس هذا الصفاء الروحى ماثلا فى كل خلوة من خلواتهم وفى كل فناء من أفنيتهم حتى لقد تحس أن العقيدة البوذية تملأ جو السهل القائم فى أسفل الجبل .

وشهر بهلول منطقة أثرية تقوم على أنقاض إحدى المدن القديمة من عصر إمبراطورية جاندارا . شتان ما بين الحياة الصاخبة فى أسفل الجبل وبين السكينة والصفاء الروحى الذى يخيم على قمته .

٨ — الى السند فى أعقاب الاسكندر

ليس هناك ما هو أشد إثارة للمشاعر من عبور نهر السنـد فى الطريق من كابل وبشاور إلى بندى ولاهور . فالطريق من شمال فوشيرا يحف بالشاطىء الجنوبى لنهر كابل قبل أن يفرغ مياهه فى السند . وهنا نجد السند لا يزال يسير الهوينا وسط تيه من الجداول والقنوات . ولـكن ما أن تتجاوز الطرف الغربى للمجرى وتنحرف إلى جهة اليمين حتى تجد تلك المجارى المائية المبعثرة وقد حبت مياهها وتدافعت تلك المياه فى قوة إلى خانق ضيق ومن هناك بدأت تتدفق تدفقا سريعاً . وعلى المرتفعـات الواقعة على الجانب الآخر من هـذا الخانق أقام الإمبراطور « أكبر » حصنا هائلا يثبت أساس جدره العالية على حافة النهر .

وكوبرى أتوك وحصن أتوك لهما اليوم شهرة خاصة ، ولـكنهما من الناحية التاريخية يعتبران من المستحدثات . ولقد كان أمراً طبيعيا أن وقع اختيار مهندس القرن التاسع عشر على ذلك الخانق ذى الجوانب الصخرية لإقامة كوبرى فوق نهر كبير . ولـكن ما يثير الدهشة هو أن وقع اختيار مؤسس إمبراطورية فى القرن السادس عشر على نفس هذا المـكان ليقيم جسراً من القوارب وأسطولا من القرب المنفوخة كوسيلة لعبور جيشه من جانبي النهر إلى الجانب الآخر . لقـد ظلت القرب المنفوخة حتي عهد قريب الوسيلة المألوفة لعبور نهر السند ، وكانت حتي عهد الامبراطور أكبر الوسيلة الوحيدة لنقل الجند والحجاج والتجار من أحد شاطىء السند إلى الشاطىء الآخر .

وهناك سهل يبدا عند السفح الشرقى لممر خيبر ويمتد امتداداً متصلا حتي يختفى تحت سطح البحر عند الطرف الشمالى لخليج بتغال والسند يقطع هذا السهل على بعد من نهاية طرفه الغربي . ويخرج السند من خانق ضيق فى السفح الجنوبى

للهمالايا فيجرى فى عنف ولا تهدأ ثورته إلا عند مروره بهذا السهل ، غير أنه لا يكاد يستريح قليلا حتى يدخل مرة ثانية فى خانق آخر عند أتوك . ولا تجد السند هادئاً وديعاً إلا فى المسافات بين كل خانق وآخر . وكانت قد جرت العادة على أن يعمد المسافرون إلى عبور النهر فى منتصف المسافة التي يقطعها هادئاً وسط السهل ، غير ان الأمبراطور أكبر شذ عن هذا العرف وعبر النهر بجيشه عند أحد الخوانق . وكان الإسكندر من قبله قد شذ على كثير من المبادىء المستقرة ولكنه لم يخرج على عرف عبور نهر السند كما خرج عليه أكبر ، ذلك أن الإسكندر عند غزوه للهند عبر السند فى نفس نقطة الوسط الهادئة التى اعتاد المسافرون عبوره عندها . ولا يزال آثر مكان عبور الإسكندر لنهر السند ماثلا فى خرائب حصن هوند. ومن المشكوك فيه أن هذا الحصن باق منذ عهد الإسكندر ولكن وجوده دليل على أن هذا المكان كان موضع عبور الإسكندر لنهر السند . وقد ظل كذلك حتى قام الأمبراطور أكبر ببناء حصن آخر عند أتوك . وعلى كل فقد أبديت رغبتى زيارة حصن هوند فرافقنى فى زيارتي أحد أساتذة جامعة بشاور .

وعلى الجانب الأقصي من مارد لاحظت أن الطريق القادم من سوات يلتقى بالطريق القادم من بشاور عند شاهبز جار حيث تجد كتابة أثرية من عهد الأمبراطورية أسوكا ، واختيار أسوكا لهذا المكان دليل علي أن نفس المكان كان ملتقى هاماً للمواصلات فى عهده . فهل ياترى فى هذا المكان أو فى مكان آخر بالقرب من تشارسدا ، هبط الاسكندر ، من الوديان الشمالية ليلحق مرة ثانية بجيشه الذى كان يسير فى اتجاه نهر السند فى طريق أكثر إيغالا نحو الجنوب .؟

على اى حال عندما وصلنا سوابى تأكدنا اننا كنا فى الطريق الذى سلكه الجيش المقدونى من قبل . ومن سوابى انتقلنا إلى عمبر حيث اصبحنا على بعد ميلين من حصن هوند . ولكن اذا اردنا أن نصل هوند من عمبر فعلينا أن نترك الطريق الرئيسى و نتخذ طريقاً جانبيا .

لا فرق لدينا بين أن نسير فى طريق رئيسى أو جانبي ولذلك فقد دهشت

إذ قطب رجالى وجوههم عندما اقترحت اتخاذ الطريق الجانبي بدلا من الرئيسى إلى حصن هوند . ولكنى بدأت أدرك الفارق الكبير بين الطريقين هنا فى باكستان .

ذلك أننا ماسرنا مسافه مائتى ياردة فى الطريق الجانبي حتى غاصت سيارتنا فى الطين واضطررنا إلى العودة للطريق الرئيسي للانتقال منه رأسا إلى هوندا .

فى هذه المرة ركبنا عربة التونجا وما أن سارت بنا قليلا فى طريق هوند حتى فوجئنا بأحد نهيرات السند وقد ظهر على بعد . ولم يكن هذا النهير غير جدول صغير ، استطعنا عبوره بالتونجا ، ولما وصلنا مدخل هوند امتلأت نفوسنا سرورا وبهجة . وزاد سرورنا عندما وقع بصرنا على بقايا طريق معبد مؤدى إلى النهر . لابد وأن يكون هذا هو المعبر الذى استخدمه الاسكندر وغيره من الفاتحين باستثناء الامبراطور اكبر الذى شذ عن القاعدة ، ومجرى النهر هنا يتسع اتساعا كبيرا إذ يبلغ ستة أميال . وقد ابلغنا المرافق أن عبور النهر يتم بواسطة القرب المنفوخة ، وإن « المداوى » الماهر يستطيع أن ينقل من احد جانبي النهر إلى الآخر حمولة يبلغ وزنها ١٨٠ رطلا على ظهر قربة منفوخة من جلد الجاموس . ذكرتنى هذه المعلومات بجيش الاسكندر عندما عبر النهر فى هذا المكان منذ آلاف السنين . فقد كانت كل قربة من جلد الجاموس المنفوخ تكفى لنقل جندى من المشاه المقدونيين بسلاحه الكامل (الخوذة والحربة والترس) ، بل وقد يحمل الجندى معه ماغنمه من المعارك المختلفة منذ بدأ زحفه من هلسيونت حتى عبور السند . وأخيرا انتهت زيارتنا لحصن هوند ولم يسعنا إلا أن نعود أدراجنا عابرين السند مرة ثانية .

٩ – حصنان كل يوم

لقد وصلنا أجر وإذا فنحن الآن فى قلب راجا ستان . ولطالما كانت اجمر طريقا للحركات الهامة فى هذه المنطقة . لقد كانت مركز الرجال الدعوة الاسلامية. وكانت معبرا لأباطرة المغول فى القرن السادس عشر ، وكانت مركزا للاستراتيجية البريطانية فى القرن التاسع عشر ، وأخيرا كانت مركزا لذلك الرجل الألمعى الذى فكر فى إنشاء كلية مايو . ان مسجد وارجه فى أجمر يضم رفات معين الدين شستى . ولكن شيئاً من ذلك كله لم يسترع انتباهى ذلك لأنى كنت فى قلق من أجل العودة قبل غروب الشمس .

وقبل أن أختتم زيارتى لراجا ستان أود أن أشير إلى أن هذا الأقليم يضم عددا كبيرا من الحصون والقلاع القديمة لامثيل له فى كثرته إلا ما تراه فى اليونان وإيطاليا . وإذا اردت أن تقوم بزيارة هذه الحصون فلا أقل من أن تزور حصنين كل يوم . ولا عجب فهذه البلاد كانت فى عهدها الاقطاعى تحت حكم سيادة الاقطاع الراجيوت . وكنت أود أن أرى الصخرة التى اعتاد هؤلاء السادة الراجيوت عند غزوهم للبلاد أن يلقوا منها بسكانها الأصليين فيلقون حتفهم وتتناثر اشلاؤهم ودماؤهم على الصخور .

١٠ — مصوبه وأكواخ

هل تستطيع ان تتصور هنرى السابع ملك بريطانيا الاتوقراطى وكلمت اتلى رئيس وزراء بريطانيا فى وزارة العمال. وقد اجتمعا معا فى صعيد واحد ؟ إذا استطعت أن تجمع بين النقيضين فى خيالك ، فنى استطاعتك إذاً أن تدرك سر الثورة الاجتماعية التى شبت فجأة فى راجا ستان بالأمس فقط . كان الراجات وفرسانهم يمتطون صهوة جيادهم وكانت راجا ستان مقسمة إلى مالا يقل عن ثلاثة وعشرين إمارة على كل منها أمير من الراجيوت له امتيازات الامارة التي تضمنتها معاهدات الراجا الراجيوتانى ، كما اختنى معه الحاكم الأنجليزى . ولم يفقد هؤلاء الراجات امتيازاتهم فقط ، بل أنهم وقعوا تحت سلطان جباة ضرائب الدخل من عمال الحكومة . ولقد استنزفت أموالهم الموروثة ضرائب الايرادات وضرائب التركات ، حتى أن أحفادهم لابد وأن يتوسلوا ملحين فى إلغاء ألقابهم الموروثة كي يتخلصوا من الأعباء الثقيلة التى تفرضها عليهم هذه الألقاب ، وهى ألقاب لاتعود عليهم إلا بالسخرية واستنزاف المال الموروث .

ولاشك أن ضياع الامتيازات الموروثة بهذه السرعة المفاجئة مبعث على الألم الشديد ، ولكنها علي أى حال لا تزيد ألما فى راجاستان عما هى عليه فى انجلترا أو أمريكا مثلا . وعلى كل فهذا هو الاتجاه العالمى الجديد وما يحدث الآن للطبقات الممتازة فى راجاستان يصيب مثيلاتها فى جميع انحاء العالم . والواقع أن المرء لا يستطيع أن يبدى أسفه على مثل هذا التغيير وإن كان هذا لايمنع من العطف على بعض الحالات الفردية وعلى أى حال فان انزال السادة فى راجاستان من مكانتهم العالية شيء كان قد آن أوانه منذ زمن بعيد . ذلك أن الفرق بين الأغنياء والفقراء فى هذه البلاد كان واضحاً بشكل لا يحتمل .

أن راجاستان بلد محدود الموارد ، ولكن هذه الحصون المنيعة والقصور الباذخة التي كان يشيدها الراجات اعتصرت من دماء الشعب الفقير .

كانت آخر مرة زرت فيها راجاستان قبل الآن منذ ٢١ سنة . وقد شهدت حينذاك كيف أن الحاكم الراجيبوتانى قد شيد قصرا تعلوه قبة لاتقل عظمة عن قبة كاتدرائية القديس بطرس ، ولم يقتصر الأمر على الحاكم فقط بل أن ملاك الأراضي كانوا ينعمون فى قصورهم بوسائل الترف الحديثة من حمامات فاخرة ونور كهربائى وثلاجات كهربائية وغيرها من وسائل الترف الواردة اليهم من أمريكا . وبجانب ذلك بقيت أكواخ الفلاحين على ما كانت عليه منذ آلاف السنين .

أما اليوم فقد هبت عواصف الاصلاح فاكتسحت فى طريقها كل ما يخالف روح العصر فى السهل والجبل . وتقوم الهيئة المشرفة على برنامج تنمية المجتمع الهندى على اعادة توزيع الثروة ، كذلك تقوم هيئة تطوير الادارة فى راجاستان بعمل مماثل فى اعادة توزيع السلطة . ولا تزال الحركتان فى مراحلهما الابتدائية. ولكن من المتوقع أن تظهر نتائجهما الهامة بالتدريج .

ولن يمضى جيل حتى نكون قد احدثنا انقلابا كاملا فى راجاستان .

لقد بدأنا فى راجاستان حفر آبار جديدة وشق طرق جديدة وإنشاء مدارس جديدة ، وأهم من ذلك أن الذى يتولى الأمور فى كل قرية طراز جديد من الرجال ليسوا سادة ولا إقطاعيين . وهذا هو الاتجاه السليم .

والسادة الذين جردوا من املاكهم . كان عليهم فيما قبل عهد الحكم البريطانى أن يظلوا شاهرين سيوفهم فى وجه كل من يحاول انتزاع ما اكتسبوه بحد السيف .

ومن هنا اصبح الاقطاعى الراجيوتانى خلى البال خفيض العيش لايجد ما يدعوه إلى قدح زناد فكره فى أداء خدمة للمجتمع . ومعنى ذلك أن المجتمع الهندى خسر فئة من بنيه بعد أن أصبحوا أعضاء عاطلين .

ولكن أبناء هؤلاء الاقطاعيين لن يستطيعوا اليوم أن يعيشوا فى الخيال على أمجاد الماضى ، بل لا بد لهم من الكدح فى سبيل تحصيل الرزق ، ولا بد لهم من مشاركة الجماعة فى جهودها المشتركة وإذن فقد كسب المجتمع باضافة عناصر منتجة اليه ، بعد أن كانت من قبل عناصر عاجزة عن الانتاج . شىء آخر لا يقل أهمية عما سبق وهو أن العناصر الأخرى مثل البهيل ـ وهى العناصر التى كانت قد وقعت فريسة لاضطهاد الراجيوت عند غزوهم للبلاد ـ أخذت تحت النظام الاصلاحى الجديد تستعيد مكانتها كأعضاء عاملة فى المجتمع الجديد . وإذا قدر لبرنامج التنمية أن يسير فى طريقة الطبيعى فإن هـذه الفئة المظلومة وهى تكون الغالبية العظمى من سكان راجستان سوف تشق طريقها إلى البانشايات (المجالس المحلية) وهناك تجد البلاد عناصر فنية متحمسة للانتاج . وشىء آخر وهو أن البلاد التى قست عليها الطبيعة تنتج شعوبا ذات قوة وجلد ، ولما كانت الطبيعة قد قست على راجستان بأشد مما قست به على أى أقليم آخر ، فلا بد والحالة هذه أن يكون لدى أبناء هذه البلاد من الجلد والقدرة على العمل والانتاج ما لا يتاح لغيرهم ممن شبوا على العيش الرغيد الناعم .

ولا بد أن يتبلور ذلك الجهـد فى مشروعات إنشائية تدر على راجاستان الخير العميم .

١١ — الرجل الجسور

هو رجل صغير الجسم متواضع ، تزين رأسه عمامة بيضاء عادية لا عمامة قرمزية أو صفراء داكنة ، من ذلك الطراز الجديد الذى أخذ ينتشر فى جيبور و مارو ار. ولم يكن فى ملامحه ما يدلك على ما تنطوى عليه نفسه من بسالة وإقدام ، إلا تلك الابتسامة التى ينعكس سناها على وجهه . ولكن هذا يحتاج إلى مجلدات فى وصفه . فهيا خلاصة قصة ذلك الرجل الفائق الذى أتى من أعمال البسالة بالشىء الكثير ، منذ سنوات قليلة لم يكن نصيب هذا الفلاح الراجاستانى من الأرض أكثر من نصيب غيره . وهو نصيب ضئيل من الأرض الرملية التى تتخللها الجسور والحفر والأغوار المعدة لتجميع الأمطار الموسمية وتخزينها . ولم تكن أرضه فى حالتها البكر تصلح بشىء إلا أن تكون مرعى للماعز والأغنام .

ولكن ما أتاه هذا الفلاح المتواضع فى فلاحة هذه الأرض الجدباء ، كان مثالا حيا لكل من يحوى بين جنبيه روحا مغامرة من أبناء جلدته ، فلاحى راجستان . استطاع بطل قصتنا أن يقترض ٢٥٠٠ روبية من أحد المرابين وساعدته الحكومة بمبلغ مماثل . وبالآلاف الخمسة من الروبيات حفر بئراً وأقام عليه طلمبة تدار بالبنزين ، وبهذه الطريقة استطاع رى خمسة عشر فداناً من أرضه وفى هذه الأرض المروية زرع أشجار فاكهة «الباباز» ولما كانت أرضه على مسيرة ساعات بالعربات التى تجرها الثيران من مدينة جيبور فقد استطاع أن ينقل محصوله إلى المدينة ويحصل على أرباح تغطى ديونه . وتجعله موضع حسد جيرانه .

أنى ما أردت لك بقصة هذا الفلاح الا لأضرب لك مثلا على ما يمكن أن يحققه إقليم راجاستان فى المستقبل . فالأرض وافرة الخصوبة بها كل العناصر الكيماوية اللازمة لانتاج أنواع مختلفة من المحاصيل . وكل ماينقصها الماء ، وتوفير

المياه فى راجاستان يحتاج إلى قلوب جريئة . وإنى أرى الهنـد اليوم وقد غمرتها روح الجرأة والاقـدام ولن تمضى بضع سـنين حتى تـكون أقاصى أطراف راجاستان على الحدود بين الهند وباكستان وفيرة المياه بعد القحط الشديد الذى كان يهددها منذ زمن بعيد . وسوف يتحقق ذلك بحفر أطول قناة للرى فى العالم وعلى الرغم من شدة حرارة الجو فالتربة خصبة وعندما يصلها الماء سوف تغل القمح والذرة والنباتات الزيتية والموالح والعنب وسوف يستطيع مليونان من البشر أن يعيشوا على الزراعة فى منطقة لا تعول اليوم أكثر من مائة ألف من الرعاة . لقد سعيت إلى أبناء هذا المشروع العظيم عندما كنت فى جايسليمر ثم أسعدنى الحظ إذ التقيت بالمهندس المـكلف بالمشروع فى مطار جيبور . وهذه القناة العظيمة سوف تـكون بعد الانتهاء منها مفخرة من مفاخر شبه القارة الهندية وهى وإن كانت تثير إعجابى فهناك ما هو أكثر فى نظرى إثارة للإعجاب : ذلك هو الرجل الصغير المقدام الذى استطاع أن يحول خمسة عشر فداناً من الأرض القفر إلى بستان زاه من أشجار الفاكهة .

١٢ — أهنا .. نهاية الدنيا ؟

كان سفرنا من جود يور إلي جايسلمر أكثر سهولة من الانتقال بين لندن ونيويورك . فلم تكن هناك تلك العوائق التي تعترض سبيل المسافة بين المدينتين الانجليزيتين ، فلاسيارات ولا لوريات وكل مايقابلك قطعان من الغنم والماعز التي تسير الهوينا على الطريق المرصوف . ولكن ما أن انتهى الطريق الممهد بالأسفلت حتى أصبح الانتقال على درجة كبيرة من المشقة ، خاصة وقد اختفت رمال الصحراء وظهرت فى مكانها عروق الصخر . وبعد أن اجتزنا الجسر والحديقة من خلفه انتهى الماء والنماء . ولم نعد نرى حتى ولا تلك النباتات الشوكية التي يعيش عليها الحيوان فى الصحراء الرملية القاحلة . لابد وأننا الآن قد بلغنا نهاية المعمورة .

وحينما تواردت على خاطرى مثل هذه الأفكار شاهدت عدداً من السيارات الكبيرة محملة بالركاب تسير فى نفس اتجاهنا . وقد علمت أن هؤلاء حجاج عائدون من زيارة أحد المعابد الجينية . وأن أداء هذه الفريضة هى أقصى آمالهم فى الحياة ان الثرى الجينى الذى قام بالانفاق على هذه القافلة من الحجاج اصطاد ثلاثة عصافير بحجر واحد : فقد أتاح الفرصة لنفر من اخوانه فى العقيدة أن يؤدوا الفريضة وهو بدوره قد نال أجراً مضاعفا وفى نفس الوقت تخلص من ضريبة الدخل إذ أن انفاقه على قافلة من الحجاج تعتبر فى نظر قانون ضريبة الدخل الهندية نوعاً من أعمال البر التى توجب الاعفاء من ضريبة الدخل . أما تصرف الرجل بهذه الطريقة فيرجع إلى مفهوم فلسفة السعادة لديه ، وهو يرى أنه طالما كان لزاماً عليه أن يخرج المال من خزانته فليوجه هذا المال لجلب منفعة له ولمن يريده بدلا من أن يزيد به دخل الدولة ، وهو مبدأ غريب ولكن غالبية الأثرياء من أهل العقيدة يعتنقونه. وفى اليوم التالى عند سفرنا من جايسلمر إلي جودبور

مررنا بقافلة أكبر من أولئك الحجاج . ويبدو أن جينيا آخر أكثر ثراء من صاحبنا بالأمس قد تطلع إلى كسب ثواب مضاعف فزاد من عـدد قافلة الحجاج التى ينفق على أدائها . اما أن هذا يؤدى إلى عجـز أكبر فى ضريبة الدخل فأمر لا يهمه . وهكذا عمرت تلك الصحراء المقفرة فى فـترة موسم حج الجينيين .

أن صحراء راجاستان منتجة . وكأن إنتاجها هذا بفعل ساحر فلم تكتف بما يتوافد عليها من حجاج جينيين ولا بمـا يعيش على نباتاتهـا الشوكية فى الطرف الشرقى من ماعز وغنم . ولكنها انتجت مدينة كاملة يسكنها إثنا عشر ألف نفس وهؤلاء جميعاً يعيشون على القليل النادر من المياه التى جلبتها الرياح الموسمية عند مرورها بأطراف الاقليم . ولكن أى مدينة هذه !.. لقد بنيت جميعها من الحجر الأصفر الذهبي الجميل الذى يقطعه الأهالى من صخور الأقليم ، يستوى فى ذلك كوخ الفلاح وقصر الأمير. أما شرفات البيوت فهى محفورة من الحجر المفرغ والنوافذ كلها من الحجر المفرغ المنقوش . هذا فى الدور العادية . فإذا انتقلت إلى دار التـاجر الثرى فأنت أمام معرض فنى ، ذلك أن النقوش والزخارف آية فى الجمال وإبداع الصنعة . عجيب أمر هذه المدينة . لقد حرمت الطبيعة الإنسان حتى من قطرة المـاء وسنبلة القمح ولكن الإنسان كان وفياً للطبيعة فأفرغ عليها من عبقريته آيات الفن والجمال ، ان أكبر ثرى فى أمريكا ليعجز عن أن يقيم لنفسه داراً فى بهاء دار أشد أهالى جايسلمر إملاقا .

إن الصحراء فيما بين جايسلمر وجوربور قطعة من جهنم أثناء النهار ورغم ذلك فقد مكثنا فى جايسلمر يوما لنزور القلعة ونشاهد أحد المعابد الجينية .

وفى طريقنا إلى القلعة شاهدنا منظراً غريباً ذلك هو صفوف متراصة من الكرات الحجرية الضخمة قد صفت على الرفوف الطبيعية لذلك المنحدر الصخرى المدرج . وعلمنا أن حماة القلعة يدفعون بهذه الأحجار فتسقط على كل من يهاجم قلعتهم وتحطمه . كذلك شاهدنا قبوا صخرياً . حفظت فـيه المخطوطات المقدسة الجينية خشية أن تنالها يد الإنسان بالسوء .

ولقد كلفتنا هـذه الزيارة الكثير إذ اضطررنا إلى العودة من الزيارة ظهرا وما أن سرنا قليلا تحت الشمس المحرقة حتى وصل المـاء داخل « راديانور » السيارة إلى درجة الغليان ، مما اضطرنا إلى التوقف بين لحظة وأخرى حتى يبرد الراديانور . وقد أدى هذا التأخير لتخلفنا عن موعد قيام الطائرة إلى نيودلهى ولمـا كنت مكلفاً بالقاء محاضرة فى نيودلهى فى اليوم التالى فقـد اتجهنا بالسيارة فى ضوء القمر إلى مدينة أجبر ومنها ركبنا القطار إلى نيودلهى .

عجيب أمر راجاستان ، ان صحراءها ليس بها شيء من القوت ومع ذلك فحيثما مررت بنبـع ماء فى هـذه الصحراء وجدت صفاً طويلا يضم مئات من الأغنام والمـاعز والجمال والبقر وكلها فى انتظار دورها للسقيا .

ذكرنى هـذا المنظر يعقوب وقد وقف فى البرية يستقى من البئر ثم جاءت راحيل هى الأخرى لتستقى وكان ما كان بينهما من تعاطف وزواج أنجب يوسف وشقيقه بنيامين .

١٣ - ميوار

ان الطرف الجنوبي لصحراء راجاستان هى أكثر مناطقها ماء وخضرة فهنا الجداول المائية والحقول الواسعة من القمح والدخن وهى تقدم لك فكرة مبدئية عن جوجارات الجارة الجنوبية لراجاستان .

وعلى بعد أربعين أو خمسين مترا من مطار أودايبور أخذت الأرض تتموج مكونة صفاً من الصخور المسننة الحادة . ومن ورائها فى الأفق البعيد سلاسل من التلال والجبال . وفى إحدى الفجوات القائمة بين التلال شاهدنا قمة عالية فتساءلت أيمكن أن يكون هنا حصن تشيتور ؟ مبلغ علمى أنه حصن كبير ولكن لم أكن أتصور أنه يبلغ هذا الحد من الضخامة . لقد كانت أسواره الهائلة تتوج قمة ذلك الجانب الشديد الانحدار من الجبل . ويبلغ طول هذه القطعة الراجيوتانية ميلين ونصف الميل . وعرضها نصف ميل على الأقل وعلى ذلك فان سطحها الأعلى لايتسع لاقامة القصور والمعابد والأبراج فحسب.. ولكنه يتسع أيضاً للحقول. والواقع أن هذا السطح كان ينتج من الخبز والماء ما يقيم أود حامية راجيوتانية عدة سنوات ويدور حول قاعدة إحدى الصخور الكبرى مجرى ماء يصلح لأن يكون خندقاً حول الحصن . وعندما وقف الحاكم الراجيوتانى المحلى يتحدى سلطة الأمبراطور المغولى أكبر كان يعتقد أن حصن تشيتور منبع على الأعداء . ولكن فات هذا المحارب الراجيوتانى الذى كان تحت تأثير استراتيجية العصور الوسطى ما كان لدى الفاتح المغولى من فن عسكرى تركي وخاصة فن المدفعية . عمد أكبر إلى إقامة تلال مرتفعة تسمح لمدفعيته بأن تطلق نيرانها صوب الأسوار وما أن بدأت المدفعية المغولية عملها حتى سرى الدمار فى جوانب الحصن .. لقد تصدعت الأسوار ونسف الحصن . وحلت بالحاكم الراجيوتانى كارثة لم يكن يتخيلها من قبل .

لقد كانت كارثة حقيقية ولكنها لم تكن الفاصلة . لقد حرم على الحكام الراجيوتانيين إعادة تحصين تشيتور ولكنهم عمدوا إلى ما هو أفضل ، فقد أقاموا

عاصمة محصنة فى ركن آخر من إقليمهم ، وبفضل هذه المدينة الجديدة أنزلوا المزيمة بالمغولى فى الجولة الثانية . ان أوداييور مثل تشيتور تعتمد على وسائل الدفاع الطبيعية يدعمها الفن العسكرى . ولكن الطبيعة هنا قامت بدور استراتيجى جديد . فبدلا من أن تقام أوراييور على قمة صخر كما حدث فى تشيتور فإنها رقدت فى منخفض تحيط به الجبال من كل جانب ، بحيث تقيم حوليه سوراً طبيعياً . ويبدو لك أن الأرض تجرى بك عند انتقالك من المطار إلى المدينة . وما أن تصل أبواب المدينة حتى ينفرج الصخر ويهيء لك سبيل الدخول . وفوق تلك الصخرة القائمة على مدخل المدينة أقيمت بوابة صخرية محصنة على جانبيها أسوار ضخمة ترتفع إلى حد يصعب معه على أى مهاجم أن يقترب منها . فى هذا المكان انتقم الراجيوتانيون لهزيمتهم فى معركة تشيتور مع أكبر بأن أوقعوا بحفيده اورانجزيب هزيمة منكرة عند مدخل أوراييور . عندما دخلنا أوراييور من هذه البوابة المحصنة وجدنا بركة ماء صناعية كبيرة .

ولن أنسى منظر النساء وهن يغسلن الملابس فى هذه البركة وأمامهن المستحمون والماء يتناثر من حولهم يمنة ويسرة . كذلك لا أنسى منظر القصور المحيطة بهذه البركة . وأشد ما استرعى انتباهى ما وجدت عليه أهل البلد من صعوبة المراس وقوة الشكيمة ، لقد بعث تشيتور روحا جديدة فى نفوس الراجيوتانيين فهبوا فى حماس لإقامة مدينة أوراييور ، أنهم كجماعة من النمل هدم عشها فبادرت فى عزيمة لا تعرف الكلل فى بناء عش جديد . ان الأمراء الراجيوتانيين الذين أصدروا الأوامر باعادة البناء كانوا من أبناء العهد القديم ولكن العهد القديم ولى إلى حيث لا رجعة . وفى مكانه اليوم الهند الناهضة تسير حثيثاً نحو التطور .

ولكن الرجال الأشداء الذين صدعوا بالأمر عندما صدرت إليهم تعليمات الأمراء بإعادة البناء فأقاموا من الجبال حصوناً ومن الوديان مدناً هم أجداد رجال راجيوتانا الحاليين ، أبناء القرن العشرين . وكما استطاع الأجداد الوقوف فى وجه الطغيان ممثلا فى الامبراطور المغولى أكبر وأبنائه فكذلك سوف لا يستطيع الأحفاد تحدى الزمن والمساهمة فى بناء عالمنا الجديد على دعائم وطيدة من السلام والحرية والنهضة الشاملة .

١٤ ـ العودة إلى نيودلهى

بعد أن انتهيت من زيارة أورابيور عدت إلى نيودلهى لأمضى بها يومين قبل السفر إلى أفغانستان . وفى أثناء إقامتي فى نيودلهى علمت أن مطار كابل مغلق وأن على أن أرحل بالسيارة من بشاور .

فى يوم الإثنين ١٨ إبريل غادرت دار مضيفى الدكتور مراد كريشنا فى شارع مولانا أزاو فى نيودلهى إلى محطة دلهى القديمة . ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن المطر كان ينهمر فى ذلك اليوم . ذلك لأنه من غير المألوف سقوط المطر فى نيودلهى فى مثل هذه الفترة من العام . وإذا كان المطر يسقط بهذه الغزارة فى نيودلهى فكيف يكون حاله فى المناطق الجبلية بين بشاور وكابل لا بد وأنه ينهمر هناك فى سيول جارفة .

وبعد مسيرة بعض يوم فى القطار وصلنا أمريتسار وهناك كان لا بد من إجراءات كثيرة فى منطقة الحدود بين الهند وباكستان . وعندما وصلت محطة بشاور أخذتنى الحيرة ، إذ كيف أستطيع إنجاز رحلتى والوصول إلى كابل . وفى وسط هذه الحيرة سمعت صوتاً ينادينى : « هل هذا هو البروفسور توينبى » ؟ أنا قادم من مكتب نائب المندوب السامى لمقابلتك . « كان فى مقابلتى لهذا المندوب حل لجميع مشاكلى المعلقة ، فقد ذلل مكتب المندوب السامى كل الصعاب التى اعترضت سبيلى فاتخذت مكانى فى الأتوبيس المسافر إلى كابل دون إبطاء .

١٥ ــ من خلال المرآة

ليس منا من لم يشاهد حشرة صغيرة أو عصفوراً وقد حبس فى غرفة فاخذ يتخبط ذهابا وجيئة وصعوداً وهبوطاً ، ثم يضرب بجناحيه زجاج النوافذ طلباً للنجاة . ان هذا المخلوق البائس يرى من خلال زجاج النافذة عالماً خارجياً مبسوطاً أمامه ، وهو لا يدرى ماذا يعوقه عن الخروج إلى هذا العالم الفسيح . ان كفاحه وضربه الزجاج بأجنحته فى محاولة الخلاص لتمثل أقصى درجات اليأس والقنوط .

ان ما يحدث لمثل هذا الكائن الصغير يحدث مثله تماماً للانسان بل لقد جربت هذه الحيرة القاسية بنفسي فى طورخام أثناء الانتقال من باكستان إلى أفغانستان عند أسفل المنحدر الغربى لممر خيبر .

إذا مددت بصرك من الجانب الباكستانى لخط الحدود بين باكستان وأفغانستان رأيت الجانب الأيسر من جبال هندوكوش الشاهقة التى تشرف على وديان نورستان . ولو أنك استطعت الارتفاع قليلا لتكشفت أمام ناظريك كل تلك الكتل الجبلية الهائلة المكسوة بالثلوج . بل قد تستطيع مشاهدة نهر كابل وهو يغوص ويختفى فى خانق لا يظهر منه مرة ثانية إلا فى ورسك على الجانب الباكستانى من خط الحدود . ومن الناحية اليسرى ترى مشهداً آخر ، ذلك هو صخرة عالية فى إقليم بهستان يتوجها حصن من عهد الامبراطور أسوكا ــ وقد تحاول ان تمد بصرك إلى ما وراء ذلك ولكن يحول دون ذلك السور الجبلى الشاهق الذى يكون الجانب الشمالى لممر خيبر . هنا لا يسعك الا أن ترد الطرف فى حيرة وقلق وهنا للمرة الثانية ينتابك شعور الطائر الذى حبسته فى حجرة فأخذ يخبط زجاج النافذة بجناحيه فى محاولة يائسة للنجاة ان هذا الشعور الذى ينتابك نوع من الكلوستروفوبيا ، وهو جنون الخوف من الأماكن المغلقة . إنك تخشى أن تظل حبيساً بين هذه القمم الشاهقة أبد الدهر . ولن تشعر بالراحة

من ذلك الهم يثقل صدرك إلا إذا انحدرت إلى جرود ولم تجد أمامك ما يعترض سبيل الفرار من هذه المصيدة الجبلية .

لقد اقتربت من جرود فانتعشت وأحسست بالحياة تدب فى عروقى مرة ثانية ولم يكن من السهل الانتقال الى أفغانستان عن طريق جرود لولا أنى كنت قد حصلت على تصريح بذلك من القنصلية الأفغانية فى بشاور . أما وقد أعددت العدة الكاملة لرحلتي الى كابل فلم يعد هناك ما يحول دون الشروع فيها . تقدمت بنا السيارة الى الحدود الأفغانية ، وهنا تكشفت لنا نورستان جميعها وقد كستها الثلوج ، كما بدا نهر كابل وكأنه قضيب من الفضة وسط الصخور ثم اختفى بعد قليل فى خانق ورسك .

تخيلت أن كل شيء أصبح سهلا وأن الطريق الى كابل صار مضموناً ، وفجأة اعترضت سبيلنا كتل من الصخور دفعتها السيول الجارفة من أعالى الجبال وأخذت سيارتنا تكافح لشق طريقها وسط هذه الكتل الصخرية . وأخيراً تخلصنا من السيول والأحجار وبدأت استعين بهمتى ولم أكن أعرف ما تخبئه لى المقادير .

أن الطريق من طور خام الى جلال أباد يسير فى ممر عريض بين سلسلتين جبليتين تعلوهما الثلوج ، وهى صفد كده عن اليمين وهندوكوش عن اليسار ، وفيما وراء جلال أباد ينقسم الطريق الى شعبتين احداهما تسير فى وادى نهر كابل والأخرى فى وادى صورخاب وهو أحد فروع نهر كابل .

وهنا طريق معبد فى هذه المنطقة ، ولكنه بعيد عن خوانق نهر كابل . ذلك أنه من الأفضل شق الطرق فوق ممر خيبر بدلا من خانق ورسك . ومنذ الانتهاء من سد ورسك امتلأ هذا الخانق بالمياه المتجمعة وراء الخزان بحيث لم تترك مسافة لشق طريق بين البحيرة الصناعية التي كونتها مياه الخزان وسفح الجبل . أما فيما وراء جلال أباد فإن الطريق المشقوقة هناك تترك مسافة كافية بينها وبين نهر كابل . والطريق القديم كان هو الآخر يتجنب الاقتراب من نهر كابل . فيسير فى أعالى وادى صورخاب متجها الى ممر خور كابل .

وفى هذه المنطقة أنشأ أباطرة المغول حديقة امبراطورية كانوا يستريحون فيها عند انتقالهم من دلهى الى كابل فى عربات يجرها الثيران أو الفيلة ، والغريب أن الطريق الحديث يقترب فى تهور من الشاطىء الأيمن لنهر كابل ويسير فى نفس هذا الاتجاه حتى يصل إلى مدينة كابل . ولكنك ما أن تبلغ ملتقى نهر كابل بنهر صور خاب حتى تجد نفسك أمام خانق آخر يكاد يبتلع النهر والطريق معاً .

وان نهر كابل نهر غريب التكوين . وإن كنت قد شاهدت نهر السانت لورنس فيما وراء شلالات نياجارا . فما عليك الا أن تتخيل ضيق النهر الى الثلث مع الاحتفاظ بقوة اندفاع التيار وهذا يعطيك فكرة عن نهر كابل وتكوينه .

لقد اقتربت من النهر وشاهدت بنفسى كيف تندفع تياراته قوية جارفة فى زمجرة وهدير يبعث فى النفس الرهبة ، أما منظر أمواجه الصاخبة المتلاطمة فيثير فى القلوب الفزع .

لقد رأيت هذه الأمواج العاتية تندافع فى حركة دائرية فتنهش الطريق الذى كنا نسير عليه بجانب النهر نهشاً . وهنا وضعت وزارة الاشغال صفا طويلا من الاحجار لتكون حدا فاصلا بين الطريق الآمن والموت المحقق وسط الأمواج الغاضبة . ولما كانت سيارتنا عريضة الجوانب فقد أصبحت بين خطرين داهمين عن يميننا وشمالنا أحدهما خطر الجبال الشاهقة والآخر خطر المياه الدافقة . لقد كنت فى طفولتى أحس نشوة قوية عندما أذهب لمشاهدة فرقة المدفعية الملكية الراكبة أثناء المناورات العسكرية السنوية فى انجلترا . كان رجال المدفعية الراكبة يسيرون علي حافة مرتفع يذكرنى به الآن الطريق المحاذى لنهر كابل . ولكن هناك فارق كبير بين الحالين ، ففى انجلترا شاهدت لهذه المواقف الخطرة . أما هنا فانا بشخصى أمر بالتجربة المرعبة .

وحتى لو سرنا هنا فى الطريق الآمن الذى حددته لنا الدولة ، فنحن لسنا فى أمان من عدوان النهر والجبل . ذلك أن النهر بنهشه فى الشاطىء ، قد يكون من القسوة بحيث يسبب انهيار الشاطىء . أما الجبل فلا يزال يهدد باسقاط كتل

صخرية . وهكذا كنا بين خطرين محدقين . ومن حسن حظنا ان كان هناك فوج كبير من عمال الطرق ينقلون الصخور المنهارة من الجبل لردم الحفر التى سببها انهيار الشاطىء . ويبدو من سحتهم أنهم من العناصر شبه المنغولية التى تقطن فى فى اقليم هزاراجات . ولقد شاهدنا مدير الأشغال العامة بين العمال يراقب عمليات الاصلاح المستمرة . وتصادف أن ألقيت نظرة على احد الجروف المنهارة من شاطىء النهر فارتعدت خوفا من هول المنظر ولكن هؤلاء العمال الذين لايعرف الخوف سبيلا الى قلوبهم كانوا عاكفين على عملهم الخطير المضنى وكأنه ليس هناك ما يفزعهم .

وعندما وصلنا ساروبى اقترب النهر من الجبل بحيث لم يترك طريقا لشخص يسير على قدميه وهنا كان لزاما علينا أن نغير طريقنا و نتجه يسرة نحو ممر لاتلقاند .

بدأنا مسيرنا فى هذا الطريق الجديد على سفح متدرج الارتفاع ، ولكن بعد قليل انتهى هذا السفح المتدرج وألفينا أنفسنا فى طريق متعرج فى سفح السلاسل الجبلية . وبعد قليل عدنا مرة ثانية الى وادى نهر كابل ولكن على ارتفاع كبير .

نظرت إلى أسفل فإذا بنا نسير فوق خانق تانجى جارو ثم تلفت الى أعلى فوجدتنا نواجه جبال هندوكوش عالية شامخة فوق وديان نورستان . لقد استطعنا حتى الآن أن نتجنب مياه النهر الصاخبة ، ولكننا لم نستطع تجنب الصخور المنهارة من الجبل . أضف الى هذا خطرا آخر وهو السيول التى كانت تدمر الطريق فى كثير من الأماكن . وهنا كان على السائق أن يسير بمهارة فى مجرى السيل بين كتل الصخر المتناثرة .

ولما وصلنا جلال أباد أصبحنا نتصبب عرقا رغم أنى كنت قد خلعت سترتى وبقيت فى القميص والسراويل . ولكننا لما تقدمنا صعدا فى اتجاه ممر لاتاباند ند عدنا مرة أخرى نلتف فى معاطفنا اتقاء للبرد . وهنا شاهدت ملاحظة غريبة وهى أنه رغم اشتداد البرد فقد ظل الماء فى رادياتور السيارة يغلى . ولما هجعنا

قليلا أبصرت شيئا أثار إعجابي . ذلك أنه كان هناك جماعة من الرعاة وقد نصبوا خيامهم على سفح الجبل وأخذوا يستعدون لقضاء الليل بين قطعانهم من الأغنام والبقر .

سرنا نتخبط متحسسين طريقنا في الظلمة الموحشة والمسالك الخطرة حتى تنبهنا الى صوت السائق يرتفع عالياً « أنوار كابل » .

أخيرا وصلت كابل وأنا فاقد الوعي فتسلمتني يد رحيمة أفرغت في جوفي بعض الويسكي بالصودا ، ثم نقلت الى فراش لين ووضعت تحت أقدامي زجاجات الماء الساخن وأوقدت النيران لتدفئة المكان . وعندما افقت خيل لي أني في منطقة قطبية .

عجيب أمر هذه البلاد ! أبين عشية وضحاها انتقل من حر راجاستان اللافح الى برد كابل القارس ؟ كل شيء قد تغير ولم يعد هناك ما يذكرني براجاستان الا صوت الهدهد .

١٦ - باروبا نيزاواى (أفغانستان)

وقفت على شرفة فى اصطاليف وسرحت بصرى نحو الشمال الشرقى فوق سهل كوه دمان . كان يحجب الأفق الشمالى سور مرتفع مكسو بالثلوج هو سفح جبال هندوكوش .. وهى هنا ليست شاهقة العلو كما هو الحال عند نورستان . ومع ذلك فهى من العلو بحيث تتمتع حتى على النسر . لقد أطلق عليها الأغريق اسم باروبانيزوس . وهذا معناه فى لغة الأفستا « جبل أعلى من أن يحلق فوقه النسر » هنا تقف باروبانيزوس (هنودكسوش) شامخة تحجب الأفق من الجانبين الشرقى والغربى والمرجح أن هذا المكان هو ملتقى نهر غور بندو بانجير . وكل من هذين النهرين يجرى نحو ممر جبلي يسهل اجتيازه سيراً علي الأقدام أو على ظهور الحمير. وقد ظل ملتقى هذين النهرين ممرا استراتيجيا هاماً حتى ظهرت مدينة كابل . فغيرت اتجاه طرق المواصلات من مجراها الطبيعى إلى ذلك الوضع الجديد . ولم تكن مدينة كابل مركزا استراتيجيا أو سياسياً طوال أربعة عشر قرناً تبدأ بالقرن السادس قبل الميلاد . بل كان المركز السياسي والاستراتيجى الهام يجمع مدينتين عند ملتقى نهر غور بند ونهر نيجيز . وقد أطلق دارا علي هاتين المدينتين اسم كابيشار كانيش ، وتعرف آثارها الباقية اليوم باسم بجرام وقد وصلت المدينة المركبة أوج عظمتها فى القرن الأول والثاني الميلادى عندما كانت عاصمة الإمبراطورية عظيمة تمتد من نهر آمور — داريا حتى نهر جنا . وبناة هذه الأمبراطورية هم الكوشان وهم من الرعاة الرحل القادمين من أواسط آسيا وقد شقت البوذية طريقها عبر اروبا نيزواى أثناء رحلتها من الهند إلي الصين وأواسط آسيا .

ولا يغيب عن ذهننا أن امبراطورية الكوشان كانت وريثة لأمبراطورية الأغريق فى هذه المنطقة .

وفى خلال وقوفى فى الشرفة فى اصطاليف سرحت بيصرى فى السهل والجبل والمنظر الطبيعى الخلاب فارتسمت فى مخيلتى صورة لتلك الأعمال الباهرة التى كان أبطالها أولئك القادة العظام من أمثال الاسكندر وديمتريوس وهيرمايوس .

وعندما بلغ الاغريق بلاد بارو بانيزادى بعد أن اقتحموا جنوب غرب آسيا قادمين من موطنهم حول الدردنيل ، شعروا لأول مرة بالأنس والراحة لما بين هذه البلاد وبلادهم من شبه كبير . فالسهل الذى تحيط به الجبال ذكرهم بأيورديا وتساليا وكروم أفغانستان ذكرتهم بأن الإله ديونيس لابد وأن يكون على علم سابق بفتوح الإسكندر فى آسيا .

لقد أقام الإسكندر مستعمرة اغريقية فى بجرام . وفى القرن الأول الميلادى كان الأمير الأغريقى خرمايوس لا يزال يحكم هذه البلاد بعد أن انتهى حكم الأغريق فى كل بقعة أخرى من بقاع المعمورة :

ويقال ان هرمايوس قد آخى الكوشان الذين يقيمون على الجانب الآخر من الجبل . ولا شك أن قوة هرمايوس كانت ضئيلة إذا ما قيست بقوة الكوشان ولكنه على أى حال كان بيته مفتاح الطريق إلى آسيا الوسطى والهند ، ولا عجب إذن أن يعمل الكوشان على خطب وده . والكوشان مثلهم فى ذلك مثل الرومان — كانوا من محبي الهللينية .

وهكذا نجد الحضارة الاغريقية تزدهر فيما بين أمورداريا وجمنا قبل ما ازدهرت علي شواطىء البحر الأبيض . وتظل فى ازدهارها فترة طويلة بعد انتهاء حكم الأغريق .

لقد ارتسمت فى مخيلتى وأنا واقف فى شرفتى فى اصطاليف صورة الإسكندر وهو يعبر جبال هندوكوش من سهل كوه دامان ليغزو بقطريا من جهة الجنوب وتذكرت ديمتريوس ملك بقطريا الأغريقى فيما بعد وهو يعبر نفس الجبل من الشمال إلى الجنوب بعد عبور الإسكندر له بقرن ونصف عندما كان فى طريقه لغزو الهند . ولقد نقل ديمتريوس هو وخلفاؤه الأسلحة الأغريقية والنقود

الأغريقية إلى قلب الهند فكان لها هناك أثر أطول مدى من غزو الاسكندر للمشارف الغربية لشبه القارة الهندية .

وتثبت لنا النقود الجميلة التى خلفها الغزاة الأغريق البقطريانيون فى الهند والفن المشبع بالروح الهللينية الذى خلفه إغريق بقطريا وخلفاؤهم من الكوشان . ما كان للحضارة الإغريقية من أثر بعيد المدى فى بلاد باروبا نيزداى (أفغانستان) و بلاد جاندارا عند ملتقى نهر كابل بنهر السند .

لقد ظللت طوال الخمسين عاماً الماضية أدرس ذلك الجانب من تاريخ العالم فى الكتب وعلى الخرائط . وأما هنا فى اصطاليف وأنا واقف على الشرفة فيمكننى أن أجمع هذا كله فى طرفة عين واحدة تغنينى عن دراسة المجلدات طوال خمسين سنة .

---

١٧ — الممر الأراكوزى

تقع هضبة ايران بين انهار السند وأمور داريا ودجلة وكأنها حصن هائل ، وتحف بها السلاسل الجبلية كأنها السور الذى يحمى جوانب الحصن ، ويحمى هذا الحصن من جهة الشمال الشرقى قلعة جبلية منيعة هى بلاد أفغانستان . ولكن الممرات التجارية فى مثل هذا الحصن الطبيعى قليلة نادرة . وهناك واحد من هذه الممرات يتجه فى منحنى نحو الجنوب الغربى من كوه داماں الى قندهار ، وآخر يتجه من الجنوب الى الشمال مبتدئا من هامونى خلموندثم هيرانت ومنها الى السهول الفسيحة الواقعة بين نهر آمور داريا وسرداريا .

وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة التى هطلت خلال شهر ابريل فقد قررنا أن نقوم بجولة دائرية فى أنحاء افغانستان وذلك حتى نتيح الفرصة للجبال التى تكون العمود الفقرى للبلاد ، أن تجف مما هطل عليها من مطر كي نستطيع عبورها بعد ذلك .

ولقد بدأنا رحلتنا من الممر الأراكوزى بقصد اتمام الرحلة عن طريق ممر هيرات . لقد كان الممران على طول العصور التاريخية طريقا حتميا لحركات الجيوش الزاحفة والقبائل الرحل المهاجرة والدعوات الدينية . وفى أثناء سيرنا فى الممر الأراكوزى طرق أذنى وقع حوافر خيل تصدر فى أعالى الجبال . وهنا جمح بى الخيال وعادت بى الذكرى الى ذلك الماضى البعيد يوم تمزقت امبراطورية قورش المترامية الأطراف، ثم أعادها دارا الفارس الى وضعها القديم . فى ذلك العام شهد الممر الأراكوزى مناظر أحداث تاريخية حاسمة فقد كان ميدانا للمعركة بين فيفانا حاكم أراكوزيا الذى انحاز الى جانب دارا وفاهيازراتا

أحد المطالبين بعرش الطاووس (عرش فارس) ولقد أعلن فاهيازراتا نفسه ملكا على اقليم فارس نفسه الذى كان يعتبر قلب الأمبراطورية الفارسية . ثم أرسل فاهيازاراتا على عجل جيشا عن طريق الممر الاراكوزى ليسحق جيوش فيفانا ويستولى على كابيشا كاتيشى (بجرام) وهى المفتاح الجنوبى للمرات الواقعة فوق جبال هندوكوش . ولو نجحت استراتيجية فاهيا زراتا لأصبح الربع الجنوبى الشرقى من الامبراطوية تحت رحمته . غير أن فيفانا أنقذ الموقف لحساب دارا فى آخر لحظة . فقد أوقف قوات العدو ومنعها من التقدم تحت أسوار الحصن الذى كان هدفها من الزحف ثم عقب على ذلك لهزيمتها ، وكان هذا ايذانا بتغيير اتجاه تيار الخطر وظلت المعركة على أشدها حتى انتهت بهزيمة ساحقة للحملة التأديبية التى كان يقودها فاهيا زراتا وتشتيت شملها ، ولقد كانت هناك ثلاث معارك حاسمة فى فترة لاتزيد عن ثلاثة عشر شهرا وكلها من أجل السيطرة على جنوب غرب آسيا .

ولقد قفز بى التفكير الى عصر أحدث نسبياً ، فشاهدت الاسلام يزحف عن طريق الممر الأراكوزى الى غزنة فكابل فالممرات المؤدية الى ما فوق جبال هندوكوش ومن هناك ينحدر هابطا الى حوض نهر آمور داريا حيث يلتقى بدعوة اسلامية أخرى وصلت الى حوض ذلك النهر واستقرت فيه منذ مائتى عام قبل ذلك التاريخ . ولما التقى الاسلام المستقر فى الوادى الخصيب منذ مائتى عام مع الاسلام الهابط من فوق الجبال التى امتنعت على النسر ، أقاما نطاقا حول المرتفعات الواقعة بين سهل كوى دامان ووادى هيرات ولم يمض زمن طويل حتى تحولت بلاد الغورى من خصم عنيد للاسلام الى بلاد تعتنق هذا الدين الجديد وتهب فى حماسة وبطولة للدفاع عنه والدعوة له .

ان غزنة أكثر ارتفاعا من كابل . وكذلك نجد جميع الممرات المؤدية من حوض نهر كابل الى حوض نهر هلمند أكثر ارتفاعا من غزنة نفسها ولكن الطريق الحالى الذى يمر بمدينة ورسك يجعل خط تقسيم المياه بين النهرين غير

محسوس لدرجة أننا لم ندركه الا بعد أن تجاوزناه بمسافة طويلة . ومدينة غزنة وقلعتها تحتلان فى الوقت الحاضر مركزا استراتيجيا فريدا .

فهى تقع على آخر مرتفع فى سلسلة جبلية علوية ممتدة نحو الجنوب الغربى ومن هنا فهى تشرف فى هذه الجهة على مخرجين لطريقين رئيسيين يتاخمان السلسلة الجبلية من الجانبين . والطريق الحالية هى الشمالية الغربية ولكن بقايا مدينة السلطان محمود الغزنوى بقصورها ومساجدها ومآذنها تدل على أن الطريق الذى فى الجانب الآخر هو الذى كان يعتبر طريقا رئيسيا فى عهده . ويلتقى الطريقان مرة ثانية جنوب غربى مدينة غزنة ويكونان طريقا واحدا يسير فى منخفض بين جبال هزارة جات فى الشمال الغربى وجبل سليمان فى الجنوب الشرقى . ورغم أننا فى شهر أبريل فلا تزال السلسلتان مكسوتان بالثلوج . وقبل أن نصل الى [مقر] أخذ السهل يضيق شيئا فشيئا حتى اصبح يشبه ممرا جبليا تحف به السلاسل الجبلية من كلا جانبيه .

وهذه المنطقة المعروفة بوادى نهر ترنك ويبلغها المسافر قبل دخول مدينة مقر ، ولا يغادرها الا اذا اصبحت مدينة قندهار على مرأى منه ، وترنك مجرى مائى ليس كبير الأهمية . ففى هذا العام الغزير الأمطار لم يستطع أن يروى اكثر من بعض حقول القمح فى حوضه الأسفل . ومع ذلك فله أهمية كبرى كطريق للمواصلات . ذلك أن واديه لا تتخلله الخوانق التى تعوق الانتقال كذلك يبلغ من سهولة الأرض وانبساطها أنك تنتقل عبر خط تقسيم المياه بين نهرى ترنك وغزنة دون أن تشعر بأى فارق فى مستوى سطح الأرض . كذلك اذا قارنا بين نهر هلمند وفرعه أرجانداب نجد أنه ينتفع بمائهما الى حد كبير ولكن ترنك يتفوق عليهما فى أن واديه أصلح للمواصلات ولقد تستطيع أن تصعد فى وادى أرجانداب على ظهور دواب الحمل حتى تبلغ وادى ترنك ولكن اذا تقدمت صعدا فى وادى هالموند فسوف ينتهى بك الى زقاق مغلق حيث تقوم فى وجهك جبال هزارة جات الشاهقة كسور لا يمكن اجتيازه .

ولكن اذا ما صعدت فى وادى ترنك تجد نفسك فى غزنة ، وغزنه هى مفتاح الطريق الى كابل ثم إلى كابيشار كانيش وبقطريا . وهكذا نجد أن نهر ترنك لامثيل له كطريق للمواصلات فى حوض نهر هلمند بأجمعه .

١٨ — تقسيم مياه بشرى

ليس الماء والزئبق هما وحدهما الشيء الذى يتدفق ، فقطيع الأغنام وأفواج الرعاة الرحل تتدفق . فى الزمن الماضى خلال شهر مارس من كل عام كان الباشتون او الباختون الرحل (ويطلق عليهم اسم البوندة شرق ممر خيبر والكوشى فى الجانب الآخر من الممر) . يتدفقون كاسراب من سمك السالمون فوق مرتفع من الأرض خلف الحرم الجامعي لجامعة بشاور . وكان مسيرهم شمالا الى الغرب نحو أفغانستان وهم قادمون من باكستان أو من الهند .

أما اليوم فقد قابلت جماعات أخرى منهم على الطريق بين [مقر وتندهار] وفى الماضى كانوا يتدفقون صاعدين فوق المرتفعات ولكنهم الآن يتجهون من الجنوب الغربى نحو الشمال الشرقى . وهكذا وجدتنى أعبر خط تقسيم مياه بشرى بين ممر خيبر والممر الأركوزى . ولقد بلغت الجماعات التى قابلتنا هذا العام هى وحيوانها من الكثرة حداً اضطرنا الى أن نوقف سيارتنا فترة طويلة حتى تمر القافلة . وقد لاحظت أن هؤلاء الباختون يحسنون معاملة الحيوان الى حد العناية به أكثر من العناية بأنفسهم . ومع قسوة الطبيعة ووعورة المسالك وخشونة الأرض فقلما تجد أحد هؤلاء الرعاة ممتطياً ظهر حيوان ، وبينما يسير الآدميون حفاة تجد الفصائل (جمع فصيل وهو الجمل الصغير) راقدة فى سلال كبيرة معلقة فوق ظهور أمهاتها ،فإذا ما اشتد عود هذا الفصيل واستطاع المشي دثروه بغطاء يبرز سنامه ويقى جسمه من الزمهرير . لا بل ان الجمال الكبيرة هي الأخرى تلبس كيساً من الخيش ليقيها شر البرد عند مسيرها فى المرتفعات . أما الجداء والحملان (جمع حمل وهو الخروف الصغير) فيحتضنها الآدميون ويحملونها كما يحملون أطفالهم .

وقفت مع جماعة من الأطفال واذا بفتاة من بينهم تحدق فى وكأن بينى وبينها رابطة دم . أمعنت النظر فى الفتاة وملامحها فإذا هى صورة طبق الأصل لإحدى حفيداتى .

أضيف على هذه الفتاة الباختون شيئاً من الشقرة أو أصبغ وجه فتاة انجليزية بحيث يميل الى الدكنة وضع الفتاتين بجانب بعضهما وكأنك أمام توأمين ! ان هذا التشابه القوى لهو أنصع دليل على وحدة الجنس البشرى ، على الرغم من تلك الحواجز المصطنعة التى يقيمونها حوله فيقسمونه الى شعوب مختلفة .

ترى كم مضى من الزمن على أجداد هؤلاء الباختون منذ أن اتخذوا طريقهم فوق جبل هندوكوش وانحدروا الى مواطنهم الحالية جنوب الجبل ؟

قد نستطيع القول بأن هؤلاء الباختون هم سلالة أخلاط من الغزاة الذين اتخذوا اللغة الباختونية وأسلوب الحياة البدوية التى نشاهدها اليوم بين هؤلاء القوم . ولا بد أن تلك الاخلاط من الغزاة جاءت فوجاً تلو فوج من اقليم المراعى بآسيا الوسطى ، فدفع القوى منها الضعيف حتى استقر به المقام على أطراف الاقليم أو فيما وراء هذه الاطراف .

وفرض آخر وهو أن بعض العشائر الرحل فضلت المراعى الخصيبة فيما بين نهرى آمور داريا وهلمند على مراعى سهول آسيا الوسطى . ذلك أن هذه العشائر قد تجد فى المناطق الجبلية من المراعى الوفيرة الخضرة ما يغريها بالانتقال هى وقطعانها نحو الجنوب والشرق من الوادى الأدنى لهارى رود .

وهذا هو الطريق الذى تبعته أفواج الساكا فى القرن الثانى قبل الميلاد . فعندما اشتد عليها ضغط عشائر اليوشى غادرت مواطنها بين حوضى سرداريا وآموداريا وسارت جنوبا فى حوض نهر هلمند حتى بلغت ما هاراشترا .

فى هذا الصباح وأنا فى طريقى الى مقر قندوهار شاهدت صورة طبق الأصل لهجرات الشعوب التى غيرت وجه التاريخ منذ واحد وعشرين قرناً مضت

١٩ ـ قندهار :

ان السائح الذى يريد دخول قندهار الحديثة قادماً من غزنة ومقر عن طريق الممر الأراكوزى سوف يصل إليها دون أن يدرك السر فى إنشاء هذه المدينة الشهيرة فى مكانها هذا . انك على قرب من مطار قندهار تجد الطريق ينحرف بعيداً عن شاطىء نهر ترنك بعد أن لازمه مسافات طويلة . والطريق هنا يرتفع تدريجياً فى سهل زراعى فسيح ثم يعبر قناة كبرى للرى . ولما كان نهر ترنك ضنينا بمائه فلا بد للقناة أن تستمد ماءها من مصدر آخر غيره .

وإذا سرحت بصرك حتى الأفق لا تجد أثراً لذلك المصدر الآخر . ولكن وراء الأفق سلسلة من الجبال قليلة الارتفاع ومن خلفها جبلان يرتفعان أفقيا وسط الوادى . هنا يعترض الرؤيا حاجز من الأشجار وينحدر الطريق إلى مدخل المدينة وقد صفت به الأشجار من كلا الجانبين ومن خلف الأشجار صفوف من البساتين النضرة ولا تزال بين الأشجار والبساتين حتى تستقر فى المدينة فاذا خرجت من المدينة مرة ثانية وجدتك أمام أحد الجبلين القائمين عمودياً وسط السهل . وهذا الجبل يشبه سفينة حربية مصفحة من مخلفات الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وله طرف مدبب بارز يشبه مدك هذه السفينة المصفحة وينتهى عندالطريق إلى قندهار . على هذا الطرف المدبب حفر الأمبراطور المغولى بابر أربعين درجة ضخمة أطلق عليها اسم شهيل زنيه . وتؤدى الدرجات الأربعين إلى كوة أو محراب سجل فيه الأمبراطور بابر أخبار فتوحه فى الهند . ثم جاء أكبر حفيد بابر فأضاف إلى هذه النقوش والكتابة الأثرية مسجلا ما قام به هو من غزوات وفتوح . وأخيراً جاء أمان الله خان ملك أفغانستان منذ عهد قريب فلم يضف كتابات ولا نقوشا ولا زخارف ولكنه زود الصخر بحاجزين من القضبان الحديدية يستعين بهما المشاهد فى تسلق الدرجات ومشاهدة آثار الأمبراطورين بابر وأكبر .

فإذا ما وقفت على الدرجة العليا وسرحت ببصرك فيما حولك انكشف لك الطريق بين غزنة وقندهار ، وأدركت أن قندهار الحالية أقيمت على أنقاض المدينة ذات الأسوار والميادين الأربعة التي سبق أن شيدها أحمد شاه عبدلى الذى أنشأ مملكة أفغانستان فى القرن الثامن عشر . ولقد قام مهندسو العصر الحديث بهدم أسوار مدينة أحمد شاه ولذلك يصعب عليك ملاحظة بقايا المدينة القديمة عند دخولك إلى قندهار الحالية ولا تنكشف لك مواضع هذه الآثار إلا إذا صعدت الدرجات الأربعين . والغريب أن منظر قندهار القديمة [أى قندهار القرن الثامن عشر] يذكرك بمنظر جايبور فى راجاستان . ويبدو هذا التصميم فى هندسة البناء غريباً فى آسيا لأنك ما أن ترى مدينة آسيوية أقيمت على هذا التخطيط الهندسى الا ويخيل لك كأن مهندساً اغريقيا قد جاء من بلاده الى قلب آسيا حاملا أوامر من الاسكندر الأكبر بتخطيط المدن على هذه الصورة .

ومدينة أحمد شاه نفسها قامت على انقاض مدينة سابقة لها فى نفس المكان ، ويبدو أن أحمد شاه قد أزاح موقع المدينة قليلا عن خرائب المدينة القديمة وأقامها فى مكان مكشوف عندما يحكم المنطقة الواقعة بين مشهد ولاهور . ولما هبطت الدرجات الأربعين بادرت بزيارة المدينة القديمة . والطريق إلى هذه المدينة ممهد بسبب وجود ضريح لأحد الأولياء يحج اليه الأهالى من جميع الأماكن المجاورة . أما المدينة نفسها فيحيط بها سور ضخم من الأجر وبداخلها خرائب قلعة قديمة مقامة على تل أثرى . ولقد لاحظنا أن استحكامات المدينة مبنية من الحجر بدل الأجر وخاصة على مقربة من السفح الجبلى الشديد الانحدار وفى أعلى الأسوار أقيم حصن منيع زادته الطبيعية قوة ومناعة .

هذا وان ارتفاع التل الذى أقيمت عليه القلعة ليدل على عمر المدينة القديمة ولكن هناك أثراً آخر يدل على عمر الطريق الذى يلتف حول مقدمة الجبل والذى أقيم عليه الطريق الحالى بين قندهار وجرشك فعلى المنحدر الجبلى من جهة الشمال الشرقى اكتشفت حديثاً كتابة أثرية من عهد الأمبراطور أسوكا الهندى . وهى مكتوبة بلغتين إحداهما الآرامية وهى اللغة الرسمية لامبراطورية

فارس المتحلة والأخرى الأغريقية اللغة الرسمية للدولة السلوقية التي قامت على أنقاض القسم الشرقي من الامبراطورية الفارسية . وهذه الكتابة تدل على أقصى مدى بلغه اتساع أمبراطورية أسوكا من جهة الغرب وهي دليل على أن أراكوزيا جميعها كانت ضمن الأراضي التي تنازل عنها سليوفوس « المظفر » خليفة الاسكندر الأكبر إلى شاندراجوتيا جد الأمبراطور أسوكا .

وبعد أن زرنا قندهار القديمة والوسطى والحديثة واكتشفنا الكتابة الأثرية التي خلفها الأمبراطور الهندي أسوكا تبين لنا السر في إقامة مدينة قندهار في مكانها الحالي .

ان نظرة إلى الخريطة لتدلنا على أن نهر هلمند له فرع في البنجاب شانه في ذلك شأن السند وأن موقع مدينة قندهار هنا يشبه موقع مدينة مولتان في حوض السند . فمدينة قندهار تقع في وسط دلتا عند ملتقى أفرع هلمند ، مثل ما تقع ملتان عند ملتقى فروع السند الخمسة التي سمى إقليم البنجاب باسمها (بنج آب معناها الأنهار الخمسة) .

ولما كان نهر ارجانداب هو أهم فروع نهر هلموند فقد قمنا برحلة جبلية في اليوم التالي حتى بلغنا وادي أرجانداب الفسيح وقد كسته الخضرة وحقول القمح وبساتين الفاكهة والأحراش .

قد يعشق الانسان النهر ، وهذا إن صدق فانما يصدق أولا على نهراً رجانداب فهو ينساب وسط بساط سندسي أخضر تلبسه صفحة مسجدية من الرمال الصفراء النقية . ولقد سحرنا منظره حتى ظللنا ساعات طويلة مأخوذين بسحره من فوق مرتفع باباولي ولو خلد الأغريق نهر ارجانداب في أساطيرهم لشبهوه بحورية البحر وقد ارتمت في أحضان محبوبها [أيتياندوس] وهو الاسم الذي أطلقه الأغريق على نهر هلموند .

وقفنا عند بابا والي نراقب هذه الحورية وهي تجرى مسرعة نحو حبيبها ايتياندوس (هلموند) ، وفي اليوم التالي شاهدنا الحورية تلقي بنفسها بين ذراعي حبيبها عند قلعة بست .

٢٠ — مايواند

مررنا سراعا بالدراجات الأربعين التى نحتهـا الامبراطود المغولى بابر فى صخر الجبل ، وغادرنا الأرض إلى منطقة شبه صحراوية بها قليل من العشـب ولـكنه على أى حال كاف لرعو الغنم والجمال . وبعد أن عبرنا أحد مجـارى السبيل دخلنا قرية كشك ناخوذ فى طريقنا إلى لشـكرجا فى الزاوية القائمة عند ملتقى نهرى ارجانداب وهلموند . ووجدنا لدينا متسعاً من الوقت لزيارة مكان معركة مايواند حيث استطاعت قوات التحرير الأفغانية أن تفاجىء حملة تأديبية بريطانية وتهزمها هزيمة ساحقة فى ٢٧ يوليو ١٨٨٠ وأحب أن أقدم للقـارىء وصفاً مجملا لسير المعركة .

كان قائد قوات الاحتلال البريطانية فى قندهار قد تلقى أنباء بأن قـوة أفغانية زحت على قندهار عن طريق هيرات فأرسل قوة من رجاله لتشتيتها .

وزحف الجيشان كل فى مواجهة الآخر متخذين أقصر مسافة بين المدينتين وهى طريق جنوبى غربى يسير فى سفح جبال هزاره جات . ان مثل هـذا الطريق يصلح للمشاة والفرســان أو للمدفعية الزاكبة ، ولـكنه لا يصلح مطلقاً للسيارات المدرعة والحملات الميـكانيـكيـكية التى تستخدم فى الوقت الحـاضر وعلى الرغم من أن البريطانيين كانوا يعلمون أن قوات التحرير الأفغانية قد بدأت الزحف إلا أنهم لم يتصوروا أن يجدوا أنفسهم أمامها وجهاً لوجه . دخلت القوتان فى معركة وكانت الهزيمة فى جانب البريطانيين . وقد استطاع روبرتس أن يجنب القوات البريطانية فى أفغانستان كارثة محققة عندما قام بزحفه الشهير من كابل إلى قندهار . وعلى الرغم من أنه استطاع أن يمحو بعض آثار هزيمة مايواند إلا أن البريطانيين رأوا من الأصـوب أن يتخلصوا من موقفهم فى أفغانستان قبـل فوات الأوان .

كذلك كان هناك غزو بريطانى آخر لبلاد أفغانستان لا يقل طيشا وسوء تقدير عن الغزو الأول . وإن كانت القوات البريطانية استطاعت هذه المرة أن تتجنب الخطر الذى أحدق بها عند عدوانها الأول على أفغانستان . ذلك أن هؤلاء البريطانيين كانوا قد تلقوا درساً قاسياً على أيدى الأفغان فى مايواند .

ولقد شاهدنا النصب التذكارى الذى أقامه الأفغانيون بمناسبة انتصارهم على الأنجليز على بعد حوالى عشرة أو اثنا عشر ميلا من كشك ناخود . ويقوم هذا النصب التذكارى فى بستان مسور يطل على المقبرة التى دفن فيها الأفغان قتلاهم فى المعركة . وهم يعتقدون أن هؤلاء القتلى ماتوا شهداء فى سبيل الدفاع عن العقيدة . ولما كانت القوات البريطانية المهزومة قد فرت إلى قندهار تاركة قتلاها فى ساحة القتال ، فقد قام الافغانيون بدفن قتلى الأنجليز مثلما دفنوا قتلاهم ، لا بل أنهم أقاموا تذكاراً لهؤلاء القتلى الأنجليز ، تقديراً لشجاعتهم فى القتال . وهذا دليل على خلق كريم أصيل فى نفوس هؤلاء الأفغان .

وعندما وقفت أمام هذا النصب الذى أقامه الأفغان لقتلى الأنجليز فى المعركة تذكرت مقابر الجند الألمان الذين سقطوا فى ميدان المعركة فى البلاد التى غزتها ألمانيا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية . حقيقة أن هؤلاء الجند الألمان قدموا أعز مالديهم وهو حياتهم ، ولكننا نتساءل ماذا كان يفعل هؤلاء الغزاة الالمان فى بلد غير بلادهم ؟ أن عدوهم كان يدافع عن وطنه أما هم فعمّ يدافعون ؟ .

ومن المحزن حقاً أن يلقى الإنسان حتفه على أيدى أبناء وطنه ، ولكن أشد من هذا إثارة للحزن والاسي أن يفقد الانسان حياته فداء لوطنه فى حرب عدوانية يشنها هذا الوطن على بلد أجنبى .

وماذا يكون إحساسنا إذا علمنا أن ما لايقل عن نصف الملايين التى لا حصر لها والتى سقطت صرعى فى ميادين الحرب كانت تشن حربا عدوانية لاحربا دفاعية ؟.

وإلى متى يصر العالم على الاحتفاظ بهذا الوضع الفاسد الذى لايخرج عن كونه جريمة عامة تشترك فيها البشرية بأجمعها ؟ .

٢١ – الشكرى بازار

انتقلنا من منطقة شبه صحراوية إلى صحراء جرداء مغطاة بالحصر والرمل لا أثر فيها للحياة . وفجأة شاهدنا عن يميننا طريقا جانبياً يؤدى إلى ناحية ما ، وخيل إلينا أنه يؤدى إلى عالم آخر غير عالم الرمل والحصى الذى يحيط بنا من كل جانب . والواقع أننا ألفينا أنفسنا أمام عالمين لا عالم واحد : أما الاول فهو مدينة صناعية على أحدث طراز ، ومن خلفها خرائب من الآجر ، وتلك هى لشكرى بازار . لقد كان هذا المكان مشتى للأسرة الغزنوية ، أما المدينة الصناعية فهى تابعة لهيئة إصلاح وادى هلموند . وقد اتخذت المدينة الصناعية الجديدة اسم المدينة القديمة فأطلق عليها اسم لشكارجا . ولهذه التسمية مغزاها فإن مهمة هيئة إصلاح وادى هلموند أن تعيد هذا الوادى إلى ما كان عليه فى الزمن السابق من نماء وإنتاج وعمران . لا بد وأن هذا الوادى كان فى عهد الغزنويين ذا قيمة انتاجية كبيرة بحيث يمون الأمير وحاشيته وجيشه طوال ستة شهور كل عام . ولم يكن أميراً ضئيل القدر لأن أملاكه كانت تمتد من خراسان حتى البنجاب .

بعد قليل من زيارتنا للسوق كنا على شواطىء نهر هلموند قبيل ملتقاه مع فرعه الكبير أرجانداب . وقد أقامت هيئة الإصلاح والتعمير قنطرة على النهر ولكنه اكتسحها بقوة تياره الجارف وبقيت الجزيرة الصغيرة التى كونها المجرى موطنا للحلوف البرى .

وقفت أتامل هذا النهر وكأنه فرس حر لا يريد أن يخضع لسلطان مدربه .

قبل أن تصل التكنولوجيا الحديثة إلى أفغانستان كان الأفغانيون يعمدون إلى ملاحظة الطبيعة كلما حاولوا إخضاعها لمنفعتهم ، بدلا من أن يرغموها بالقوة على تنفيذ مطالبهم وقنع الراعى الباختونى أو التركمانى بالتنقل وراء الطبيعة من نبع إلى نبع ومن مرعى إلى مرعى حاملا معه أهله وأمتعته وقطعانه .

انه يسير فى ركاب الطبيعة ، بدلا من أن يتوقع من الطبيعة أن تقدم عليه . أما الفلاح التاجيكى (ابن تاجيكستان) أو الأزبكى (ابن أوزبكستان) فيقنع بالحصول على قليل من الماء من جدول أو مجرى مائى ، ويكفيه من الدنيا أن يروى قطعة متواضعة من الأرض الزراعية .

لكن هيئة إصلاح وادى هلمونذ شقت عصا الطاعة على الطبيعة وخرجت على تقاليد أفغانستان القنوعة ، لقد أصبحت قطعة من أمريكا طعمت بها أرض أفغانستان .

أن هذه الألفى كيلو متر من الطرق المعبدة فى وسط الصحراء توحى إليك بانك فى نيفادا لا فى صحراء أراكوريا ، وهذه القنوات العديدة التى تمتد مئات الأميال قد اعتصرت مياهها من نهر هلموند .

أما الدكتور لالى الذى يشرف على مشروع إصلاح الوادى فهو أعجوبة من الأعاجيب . أدر قرص التليفون تجده على استعداد لتلبية طلبك ، انه على استعداد لإقامة كبرى على نهر ديلارام وهو على استعداد لشق قناة جديدة تنتزع من نهر هلموند بعض مياهه الدافئة . وفى لمح البصر تجده يفعل فى الصحراء المستحيل.

لقد تجولنا مرة فوق رمال الصحراء وحصاها وإذا بنا فجأة أمام قناة وماء وخضرة وحقول يانعة فى نادى على. ولهذا المكان قصة فقد اكتشف كيماوية التربة بعد تحليل تربة هذه المنطقة أن بها كل العناصر اللازمة لنمو النبات ، وأنه لا ينقصها إلا الماء لتصبح جنة خضراء . وهنا بادر المهندسون بجلب الماء من نهر هلموند بواسطة قناة بوغرا وهكذا انقلبت الصحراء عند نادى على إلى حقل خصيب .

وفى يوم آخر تتبعنا مجرى هلموند مسافة أربعين ميلا ولشد ما أثار إعجابنا اعمال إصلاح الأراضى التى قامت بها هيئة الإصلاح فى شاملان ودرويشان .

ان هذه الأعمال الهندسية العظيمة موضع فخر لأفغانستان فى الوقت الحاضر ، ويزيدك إعجاباً بها أن يقترن منظر القديم بالحديث ـ الكوبرى أو الخزان الحديث بجانب المبنى القديم . ان الأمل الذى يراود هيئة الإصلاح هو أن تسير قدما

بمشروعاتها حتى منطقة الحدود الإيرانية الأفغانية ، ترى هل كلما تقدمت الهيئة بمشروعاتها تجد أمامها آثاراً تدل على أن الآباء قد سبقوا الأبناء إلى التعمير . ؟

لو أمكن زراعة وادى هلموند بأجمعه لما كفى ما ينتجه من غلة لتموين عاصمة فى مثل حجم لشكرى الغزنوية ، فالقصور والساحات والميادين والثكنات وميادين تدريب الجند تمتد مسافات طويلة على طول الشاطىء الشرقى لنهر هلموند . حتى بعد أن تصل إلى أقصى الطرف الجنوبى فإنك لم تصل بعد إلى نهاية المطاف فأمده ثمانية أو تسعة أميال حتى تصل أخيراً إلى قلعة بست التى تشرف على ملتقى نهرى هلموند وأرجانداب . وفوق ذلك فان المثلث القائم بين النهرين قبل الملتقى ملىء بالقلاع والقصور .

إن هذه المجموعة الكبيرة من المبانى لهى أكبر دليل على عظمة فن المعمار فى عصر الأسرة الغزنوية وفيها الضالة المنشورة للعالم الأثرى . ولقد شهدت بداية عصر الساسانيين فى القرن الثالث الميلادى ثورة فى فن المعمار ممثلة فى الأقواس والقباب التى حلت محل القوائم العمودية والأبنية المستقيمة الزوايا والرواقد الأفقية والاسقف الهرمية . وكان ما حققه آل ساسان نهضة كبرى فى فن المعمار ولكن جاء الغزنويون بعد ذلك بثمانية قرون فابتكرت اخيلتهم الخلاقة فناً معماريا جديداً يتمثل فى الخطوط المنحنية بدلا من الزوايا المستقيمة التى سادت فن المعمار السابق . وتعتبر مدينة لشكرى بازار الأثرية مثالا حياً لهذه المرحلة التاريخية الثانية فى بناء الاقواس والقباب .

إذا ما تسلقت خرائب لشكرى بازار وجست خلال أبهائها المتهدمة فانك ترى منظراً ساحراً لنهر هلموند يجرى تحت الجرف الكبير الذى أقيم عليه القصر .

والغريب أن هلموند لم يكن غادرا كغيره من انهار أفغانستان وإلا لدفع مياهه تحت الجرف فانهارت قصور الغزنويين . كذلك لم يغير هلموند مجراه فى هذه البقعة ويبتعد عن القصور الغزنوية مثل ما فعل نهر جمنا عند نيودلهى حيث غير مجراه وابتعد عن الحصن الأحمر الذى بناه أباطرة المغول .

وعندما تقف عند الجدول الذى كان يغزى حمامات الحريم فى القصر الغزنوى تجد النهر كأنه يحتضن الجرف دون أن يمسه بسوء مجاملة منه لهؤلاء الجميلات اللاتى جلسن فى حذورهن يتجاذبن أطراف الحديث منـذ نيف وثمـانمـائة عام .

أن مهارة الانسان — حتى قبل عصر الآلة — لتفعل العجائب بمواد قد لايتوقع منها المرء أى نفع . إن ذلك الصف الطويل من التـلال السمراء لهو دليل على أن المـكان كان يوما ما مليئا بالحقول الخضراء . كذلك تشهد وسائل الرى الضئيلة فى المنطقة الواقعة بين الشكرى بازار وقلعـة بست . ان هذه البقعة كانت فى إحدى فترات التاريخ تحوى حقول القمح و بساتين الفاكهة .

إذن ما الذى حدا بالغزنويين لتمضية نصف العام فى هذة البقعة الحـارة الجرداء ، وإقامة مبانى بها لا تقـل عظمة عن مبانيهم فى غزنة نفسها ؟ هل ماجاء بالغزنويين إلي هذا المـكان هو شدة رعايتهم لحريمهم وتجنبهن زمهرير الشتـاء فى غزنة ؟ . إن هذا أمر بعيد الاحتمال ، فالغزنويون لم يـكونوا أهل لين وطراوة ولا كان بهم طابع الأنوثه ، وإذن فلم يـكن الدافع لاختيار الغزنويين لهذا المـكان هو رعاية الحريم .

إن ماجاء بالغزنويين إلى الشكرى بازار هو فيلهم ، كانت أهمية الفيـلة للغزنويين كأهمية آلات تسوية الأرض فى نظر الدكتور لالى رئيس هيئة تعمـير الصحارى . فالفيلة لاغنى عنها فى الحرب . خاصة وقد كان الغزنويون يقومون بفتوحات فى الهند . ولـكن الفيلة متعبة وإذا لم تزودها بمطايب العيش فلا قدرة لها علي البقاء . ولو أن هذه الفيلة عاشت شتاء واحدا فى غزنة مع ما هى عليه من برد قارس لفنيت عن آخرها . هذا هو السر فى انتقال الغزنويين إلى وادى نهر هلموند الأدفى فى فصل البرد القارس فى غزنة .

ولقد أقنعنى البروفسور شلومبرجر بصحة هذا الرأى قائلا :

أتذكر أين كان الإغريق السلوقيون يحفظون فيلتهم ؟ .

قلت : انهم كانوا يحفظونها فى أباميا .

وهنا أضاف شلومبرجر . نعم ان وادى أوروقتسى يجرى فى منطقة منخفضة هى فى الواقع جزء من الأخدود الكبير الذى يبدأ فى تركيا وينتهى فى نياسالاند . وأباميا تقع على حافة هذا الأخدود ولذلك فالجو فيها حار خانق حتى فى فصل الربيع وهذا هو الجو الذى يطيب للفيلة أن تعيش فيه .

ان الأماكن الصالحة لتوطين الفيلة نادرة فى سوريا وأفغانستان ، وكان السلوفيون أهل حرب يستخدمون الفيلة فى حروبهم كالغزنويين تماما ، وأذكر عندما كنت فى قندهار ، أن قرأت إحدى الكتابات الأثرية التى خلفها الامبراطور أسوكا وعرفت من مضمون هذه الكتابة الأثرية أن أول حاكم سلوفى « تنازل عن جميع ممتلكاته غرب قندهار وجنوب هندكوش إلى شندراجوبتا موريا فى مقابل الحصول على خمسمائة فيل من فيلة الامبراطور الهندى .

ولم يكن المقابل هينا فى نظر الحاكم السلوفى ، فقد استطاع بهذه الفيلة أن يحرز نصرا ساحقا على عدوه انتيجون الأهور . وبذلك استطاع سلوفوس أن يقيم دعائم امبراطورية كبيرة فوق ما يسمى الآن أفغانستان وشرق ايران .

وقد ظل السلوفيون منذ ذلك الوقت يعنون بالفيلة أشد العناية حتى أنه لما هزم الرومان انطيوخوس الأكبر ظل القلق يساور مجلس السناتور الرومانى بسبب وجود فيلة السلوفيين فى رحبة أباميا .

ولم يطمئن الرومان إلا عام ١٦١ قبل الميلاد حين أصدر بعض الحكام الرومان أوامرهم بقطع أوتار السيقان الخلفية . لفيلة أباميا ، وبذلك أصبحت هذه الفيلة عاجزة عن الحركة .

ولم يمض عام على هذا الحادث حتى تشتت ملك السلوفيين فضاعت منهم ميديا وبابل .

٢٢ — هيرات

أفغانستان غنية بمشاهدها التاريخية : وليس هذا بعجيب فمنذ فجر التاريخ وهذه البلاد معبر للشعوب من اهم معابر العالم . لقد كانت كابشا كانش الواقعة على ملتقى نهرى غورباند وبانجيز مركزا أسياسيا للعمليات العسكرية فى ذلك العام ذى الشأن الخطير فى التاريخ ، عام ٥٢٢ ق . م . والكهوف والتماثيل الضخمة فى باميان شاهد حى على أن هذا المكان كان طريقا رئيسيا مرت منه البوذية عبر جبال هندوكوش فى طريقها من الهند إلى شرق آسيا . وطالما أدعت لنفسها لقب « أم المدائن » ولكن هذه المشاهد التاريخية الثلاثة أصبحت اليوم فى خبر كان ، أما هيرات فهى الوحيدة من بين المشاهد الأثرية الأفغانية التى لاتزال تحتفظ بقدر من الأهمية فى العالم الحديث .

لقد كان تاريخ هيرات متصل الحوادث لم تطرأ عليه فترة من الغموض والانزواء — فعندما اجتاح جنكيز خان العالم الأسلامى بجحافله المغولية ، بادر حكام هيرات فقدموا له الطاعة والولاء ، وبذلك أنقذوا مدينتهم من الفناء الذى أصاب شهير جلجلا ، تلك القلعة الهائلة التى كانت تشرف على وادى باميان .

أما تيمورلنك الذى وجه ضربة قاصمة إلى سجستان فانه كف عن تدمير هيرات بل ان خلفاءه أحيوا هذا البلد وزينوه . وهكذا تجد هيرات اليوم شاهد حى على مجد العالم الاسلامى فى تلك الأيام السابقة قبل أن تحل به الكوارث .

إن قندهار هى الأخرى مدينة قديمة وهى لاتزال قائمة مثل هيرات ،

ولـكن هيرات تمتاز بعذوبة ولين لايتوفر لقندهار وبالاختصار ، كانت هيرات إحدى المدن الـكبرى فى دار الاسلام فى عصر الخلافة الإسلامية .

وجغرافيو العرب القدماء يعتبرون هيرات إحدى العواصم الأربع المحليـة لخراسان . وخراسـان فى مفهوم أولئك الجغرافيين العرب تشمل ما يعتبر الآن أفغانستان وشمال شرق ايران . أما العواصم الثـلاث الأخرى شقيقات هيرات فهى نيسابور ومرو وبلخ .

لقد شاهدت آثار نياسابور وبلخ ، أما مرو فهى داخل الحدود السوفيتية وإذن فلا أمل لى فى مشاهدتها . على كل لقد وجدتنى فى لهفة لرؤية هيرات العاصمة الرابعة لاقليم خراسان خاصة وأنهـا لا تزال قائمة ولم تنحدر بعد إلى صفوف المدن التاريخية المندثرة . عندما تقدمنا فى سهل شين داو الأخضر الفسيح ازداد عجبى ، فقد كـنا نقترب من خط تقسيم المياه بين أوراسكان ونهر هارى الذى تقع هيرات فى واديه . ولم نشعر بأننا اجتزنا خط تقسيم المياه إلا بعد أن عبرناه وهنا وجدنا أنفسنا فى واد متدرج الانحدار ينتهى بفضاء واسـع من الأرض المـكسوة بالعشب . وعندما فارقنا الوادى ألفينا أنفسنا نسير فى ممر من أشجار الصنوبر يمتد عشرة أميال . ومن ممر الصنوبر انتقلنا الى وادى نهر هارى رود وهو نهر فخم ، وهو وممر الصنوبر معاً يعتبران مدخلا لمدينة هيرات الشهيرة .

لا أود أن أطيل فى وصف مشاهد هيرات فهى أشهر من أن توصف ، ويكفى أن أذكر لك المسجد الجـامع والقبـة الرشيقة التى بنتها الأميرة جوهر شـاه والمئذنتان اللتان ترتفعان فوق ضريحها والمـآذن الأربع المقامة فوق المدرسة القديمة التى اندثرت معالمها . كلها لا تزال قائمة ممتلئة بالحياة والفن .

وليس بغريب أن تضم مدينـة جميلة مثل هيرات رفات كـثير من عظماء الرجال .

فهناك مدفن جاى آخر شعراء فارس القدامى ومير على شير الأديب الذى كان له الفضل فى النهوض باللغة التركية مدفون فى هيرات ودوست محمـد خان

مدفون فى ضواحى المدينة ، وهو وعبد الرحمن خان يتنازعان لقب أعظم أمراء أفغانستان فى أخطر مواقفها خلال القرن التاسع عشر ، حيث كانت أفغانستان كأنها حبة قمح بين حجرى الطاحونة الريفاني والروسى . كذلك كان لهيرات الفضل فى احياء فن جميل ابتدعه التيموريون ووصل به الصفويون إلى حد الكمال .

وإذا ذهبت اليوم إلي المسجد الجامع فسوف تجد الصناع المهرة الحديثين يضعون القيشانى فى الاماكن التى سقط منها القيشانى القديم بنفس المهارة التى كانت لدى آبائهم من قبل .

ولا يقتصر جمال هيرات على هذه التفاصيل وانما يكمن جمالها الحقيقى فى منظرها العام . ففى الركن الشمالى من الوادى تظهر مدينة السفوح السفلي لجبل هندوكوش . وفى المرتفعات الشمالية للمدينة شاهدنا ضريحين أحدهما للسيد عبد الله والآخر لتخت صفر ولا انسى تلك السويعات التى قضيتها مستمتعاً بجمال منظر ضريح تخت صفر ، ولولا أن خط السير أرغمنى على مالا أحب لقضيت أياما بطولها أتردد على هذه الاثار الفنية الرائعة .

لطالما شاهدت وديانا جميلة من أحسن مكان لمشاهدتها ، فشاهدت وادى أسبرطة من مسترا ، وشاهدت سهلا بروضة من مقابر سلاطين آل عثمان ، كما شاهدت أخيراً وادى ارجانداب من بابا والى ، ولكن وادى هارى رود المجاور لهيرات كان يفوقها جميعاً فى الجمال .

ذلك انك اذا شاهدت الوادى من تخت صفر فان منظر مدينة هيرات يزداد جمالا اذ يظهر لك كله فى اطار واحد .

والذى يسترعى النظر أكثر من أي شيء وهو تلك القرى المبعثرة حول مدينة هيرات والاشجار التى تحيط بالقرى احاطة السوار بالمعصم .

ان النهر الكبير الذى تراه عريضاً هائلا عندما تسير على شواطئه .

يتضاءل ويختفي وسط الاحراش وبساتين الفاكهة .

فاذا اتجهت ببصرك الي الجانب الآخر فهناك ممر الصنوبر الذى ينحدر فى تدرج حتى يصبح بساطا سندسيا من العشب الأخضر ، إن هذا المنظر الأخاذ يمتد بك عشرة أميال ثم ينتهى بك فى أرض غير أرضك . إنه ينتهى بك عند مغيب الشمس علي الجانب الآخر من الحدود فى خراسان الفارسية .

---

٢٣ — عبور ممر سيزك

إن دخول هيرات من جهة الجنوب سهل للغاية ، فالممرات الجبلية منخفضة وهينة ، والطريق يسير خلال وديان مكشوفة وبعد زيارتنا لهذه المدينة اتجهنا نحو ذلك القسم من جبال هندوكوش الذى يحد وادى نهر هارى رود من جهة الشمال . إن ارتفاع الجبال هنا لايزيد عن عشرة آلاف قدم وهو نصف ارتفاعها فى نورستان ونشيترال . وقد أشار علينا حاكم هيرات بالانتظار قليلا لأن الأمطار سقطت قبل موعدها وعطلت طريق ممر سيزك .

ولكننا صممنا على السفر فى اليوم التالى مهما كانت العوائق ، وإذا كان سفرنا عن طريق ممر سيزك غير ممكن فلسنا فى غنى عن طريق آخر . ولكن المسألة ليست بهذه السهولة فالتقسيم الاتنوغرافى (طبقا لتوزيع السلالات البشرية) يجعل الاجزاء الجنوبية من جبال هندوكوش على خلاف لغوى تام مع الأجزاء الشمالية .

ففى جنوب الجبال تنتشر اللغات الإيرانية : الفارسى والباشتور والبلوخى ، وهى تمتد جنوبا حتى سواحل المحيط الهندى ، أما فى شمال جبال هندوكوش فهناك الشعوب التى تتكلم التركية ، وهذه تنتشر شمالا حتى سكة حديد سيبريا .

وإن سلسلة جبلية تفصل الايرانى من الطورانى ليس من السهل عبورها . ولكننا لم نقدر تلك المصاعب والعقبات عندما عقدنا العزم على الرحيل .

وعندما غادرنا هيرات مررنا ببساتين شهيدا هى ، ومن هناك اتجهنا شمالا عن طريق فتحة فى المنحدرات الجبلية . وكان مسيرنا على العموم سهلا حتى

بلغنا مشارف ممر سيزك . وما أن بلغنــا الممر حتى وجدنا انفسنا فى مواجهة الجليد . والتف الطريق وتعرج، ومع كل انحناءة أو تعريج ازداد عمق طبقة الجليد . ولو استمر ازدياد عمق طبقة الجليد بهذا المعدل لغاصت فيه سيارتنا تمــاما ، خاصة وقد غطى الجليد قبلنا خمسة لوريات ، شاهدناها مغروسة تمــاما وسط طبقات الجليد . وبعد صعاب ومشاق وصلنا إلى أقصي ارتفــاع قدر لنا أن نبلغه وهو ٧٩٥٠ قدما .

خيل إلينــا أن متاعبنا قد انتهت ، ولكن ما أن بدأت الانحدار نحــو الجانب التركي من الجبل حتى وجدنا المنحدر شديدا والجليد كثيفا . أخيرا وصلنــا إلى مرج به عشرة خيام سوداء وبعض الأغنــام . هرع إلينا الرجال ومع كل منهم جاروفا لمســاعدتنا ، ذلك أن حاكم هيرات كان من الحصافة وبعد النظر بحيث أرسل لنــا هذه النجدة فى الوقت والمكان المناسبين .

وبعد ما خلصنا رجال النجدة من الطين والجليد وصلنــا أول قرية تتكلم اللغة التركية وهى قرية لاما . ولمــا كانت وجهتنا قلعة « نــو » فقد سرنا وسط متاعب لاحصر لها من فيضانات ومخاضات وطين وجروف نهرية خطرة . وبعد فترة مررنا بصف من اشجار الحور الساطعة .

هنا قلعة « نــو » .

٢٤ — عبور الدواب

لما غادرنا قلعة « نو » أبلغنا اننا سوف نصادف على بعد مائة ميل من المكان فيضاناً يسد علينا الطريق . وفى طريقنا الى النهر مررنا بجوار فسيح أخضر شاهدنا فى وسطه مخيما من طراز مخيمات آسيا الوسطى ، وحول المخيم قطعانا من الغنم والبقر ترعى العشب الأخضر . وبعد أن جاوزنا الوادى وجدنا أنفسنا وسط لجة من الطين اضطررنا إلى السير البطىء فترة طويلة إذ لم نستطيع أن نقطع أكثر من ميلين فى الساعة . أخيراً انتقلنا من الطريق الموحل إلى منطقة تنتشر فيها التلال. لقد كانت تلال آسيا الوسطى هذه مسكوة بالخضرة تماماً كتلال إيرلنده وفى شهر مايو ١٩٦٠ وهو وقت وجودنا فى هذه المنطقة خيل لى ان ماعلى التلال من عشب يكفى لرعى قطعان الأغنام والماشية فى العالم أجمع . بل أن أغنام نيوزيلنده وأبقار الألب السويسرية لو خيرت لفضلت عشب هذه التلال الآسيوية على أى مرعى وأربى ، وهذه التلال الأفغانية والتركستانية لم تكن تمنح الحياة والنماء فقط ، ولكنها كانت على جانب عظيم من البهاء ، فقد كانت تحف بخضرتها من كلا الجانبين أنواع مختلفة من الزهور البرية المتعددةالألوان .

وعندما انتهينا من اجتياز تلك التلول الخضراء الساحرة بدت لنا قمم جبال هندوكوش الشامخة . وكان أمامنا خانق يجرى فيه نهر صغير علمنا أنه أحد نهيرات مورغاب الذى ينبع من غرب هندوكوش ويجرى فى أراضي أفغانستان ثم ينتهى فى الاتحاد السوفيتى حيث يروى واحة مرو ثم يختفى فى رمال آسيا الوسطى .

وأخيراً وصلنا وادى نهر مورغاب الذى طالما تاقت نفسى لرؤياه فواجهتنا منطقة خطيرة من الطين اللزج ، وكان علينا أن نغير طريقنا لولا أن أنقذنا حاكم المنطقة الذى حضر لإسعافنا ، وما أن رآنا المحافظ حتى قام بابلاغ السلطات العليا

بوجودنا ، ويبدو أن الطريق كان من الخطر بحيث أثار قلق السلطات الأفغانية على عابريه .

وعلى الرغم من كل هذه الصعاب فقد كان المرور بهذا الطريق ممكناً . حقيقة أنه بدأ بما ينذر بالشر إذ وجدنا نهر مورغاب يسير فى خانق ، وكان جانباه صخوراً وعرة لخانق بند التركستان وهى سلسلة جبلية تسير موازية لجبل هندوكوش ، ولكن الطريق انفرج بعد ذلك ، وسرنا على طول النهر فى أمان على مسطح صخرى . وفى الطريق قابلنا قطيعاً من أغنام كراكول الشهيرة .

وكانت تسير نحونا فى صفوف خمسة ما بين أبيض وأسود وأزرق رصاصي . وكان الرعاة يحملون مزماراً من النحاس الأصفر وهم من الباخشيين ، ولكن أصحاب القطيع من الاوزبك وهم العنصر الذى يتكلم التركية من سكان أفغانستان وتركستان . ولما انتقلنا إلى طريق آخر كنا فى منطقة الحدود بين أفغانستان والاتحاد السوفيتى .

كنا نود أن نتناول الغذاء فى بالامورغاب ، ولكن لا بد لنا من عبور هذا الذى يلج بالدوامات والتيارات الجارفة قبل أن نحقق غرضنا .

تقول الاسطورة أن قورشي الأكبر عندما أراد عبور نهر جنديس قسمه إلى مائة وثمانية نهير صغير ، فهل ياترى قرأ حاكم المنطقة الحالى ما كتبه هيرودوت ، وهو بذلك سوف يعمد إلى تقسيم نهر مورغاب كى يتيح لنا عبوره ؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وإنما الذى حدث هو أننا وجدنا أنفسنا أمام كوبرى فوق النهر اجتزناه بكل سهوله وإذا نحن فى مدينة بالامورغاب .

٢٥ — دشت ليلى

لما كانت الفيضانات قد قطعت الطريق بين ميمنة وشبرغان فقد اتخذنا طريق دشت ليلى . ولا أدرى ان كانت كلمة « دشت » مساوية لكلمة « desert » الانجليزية طبقاً للقواعد التى وضعها علماء اللغات ، أم لا ؟ وعلى كل حال فكلمة دشت بالفارسية معناها صحراء . لذلك اقترنت فى ذهنى طبيعة هذا الطريق بطريق سوريا وجزيرة العرب وصحراء « راكوزيا » .

تخيلت دشت ليلى صحراء واسعة مغطاة بالحصي والرمال ، ولكن ما دامت تضم اسم ليلى فلا بد وأن تكون فاتنة ساحرة إذ هى تذكرنى بليلى والمجنون . ترى ماذا تكون دشت ليلى ؟ .

لقد شاهدت فى ميمنة الخضرة الماء والحقول والأشجار ، فهل تنتهى هذه كلها هنا بصحراء قاحلة ؟ .

لقد سرنا نحو مدينة دولت أباد ولحسن حظنا وجدنا مدير الأشغال العامة فى انتظارنا . إن نهر شيرين تاجو فى حالة فيضان كبقية الانهار الاخرى . ولكن مدير الاشغال أعد لنا قنطرة لعبور النهر ، وقامت فرقة من عمال الطرق بشق طريق لنا وسط الارض الطينية التى تغطى جوانب النهر . ولما انتهينا من اجتياز هذه المنطقة الكثيرة الوحل وجدنا صفاً طويلا من التلال المكسوة بالخضرة ، ومن وراء التلال الخضراء كثبان رملية ليس فيها من العشب إلا القليل وأخيراً تخلصنا من هذا الدشت « الصحراء » ووجدنا أنفسنا فى ذلك السهل الذى يجرى فيه نهر أمور داريا .

هذه الارض التى تتخللها الكثبان الرملية والبرارى المقفرة والتى تنتهى عند حوض نهر أمور داريا هى التى يطلق عليها اسم [دشت ليلى] .

ترى هل هذه الصحراء تسحر عابرها كما سحرت ليلى المجنون، وبذلك تستحق اسمها « دشت ليلى » أى صحراء ليلى ؟ .

نعم انها تستحقه وأكثر . فهى صحراء حقيقية بمعنى أنها خالية من الماء باستثناء بعض الصهاريج التى تمتلىء بمياه الامطار فيستقى منها الرعاة ويسقون قطعانهم من أغنام الكاراكول . أما الجمال التى صادفتنا فكانت تحمل الماء فى قرب ضخمة لسقيا الآدميين ، كذلك كان الهواء منعشاً نقياً كما هو الحال فى هواء الصحراء . حتى كلاب الرعاة كانت جذابة بذيولها المقصوصة الشعر فيما عدا خصلة فى طرف الذيل ، ولما سمعت الطيور صوت سياراتنا المزعج هبت مذعـورة من أعشاشها . وفيران الصحراء نفسها وقفت على أطرافها الخلفية تنظر إلينا فى دهشة وفضول والنسور أخذت تحلق عالياً فوق رؤوسنا . نعم إن دشت ليلى جديرة باسمها .

٢٦ — بلخ

اليوم فقط رأيت بلخ رؤيا العين . كان أول ما وقع عليه نظرى فيها السور الجنوبى . وبعد ذلك اطلعت على أرجائها الداخلية الفسيحة من برج إيران . ورأيتها للمرة الثالثة من القلعة ، وهذه القلعة مدينة قائمة بذاتها . وإذا نظرت إلى برج إيران من مرتفع على الحافة الجنوبية الغربية للقلعة يخيل إليك أنه بعيد كل البعد عن بقية المدينة .

وأخيراً ألقيت نظرة رابعة على المدينة من برج القلعة ، ومن هنا لا تقتصر الرؤيا على داخل المدينة وأسوارها ولكنها تشمل المنطقة الفسيحة المجاورة لها . ولم يفتنى أن ألقى نظرة خامسة على المدينة ، وفى هذه المرة كانت المشاهدة من أحد المعبدين الزرادشتيين (معابد النار) القائمة على المدخل الجنوبي للمدينة .

وعندما غادرنا بلخ إلي مزار شريف ألقيت عليها نظرة أخيرة وأعتقد بعد كل ما شاهدته ان بلخ لم تكن فى أعظم اتساع لها بحجم مدينة عصرية مثل شيكاغو أو لوس انجلوس مثلا .

ومع ذلك فإن رؤية لوس انجلوس أو شيكاغو لا تثيرني كما اثارتنى رؤية بلخ ، تلك المدينة القديمة الخاوية .

لقد حاولت كثيراً أن أتخيل بلخ قبل زيارتى لها ، حاولت ذلك عن طريق الصور الفوتوغرافية كما حاولت أن أكون لها صورة خيالية مما قرأته عن وصفها فى المؤلفات المختلفة ، ولكن كل هذه المحاولات لم تكن شيئاً بجانب زيارتي للمدينة فى هذه المرة ورؤيتها بنفسى .

دع أولئك الذين يتحدثون عن عظمة شيكاغو من زائريها ، فما هى

بشيء إذا قيست ببلخ فى أوج عظمتها واعتقادى أن الأسكندرى الذى زار بلخ يوم أن كانت عاصمة لامبراطورية بقطريا الأغريقية لابد وأنه ذهل بما شاهد من عظمة وبهاء .

كذلك أعتقد أنه لو قام رومانيا بزيارة بلخ يوم أن كانت إحدى عواصم امبراطورية كوشان لانتابه نفس الاحساس الذى انتاب الاسكندرى من قبله .

وعلي أى حال فأنا شخصياً أخذت بهذه العظمة وهذا الجلال !

إن تلك الأسوار الهائلة والأبراج والروابى والاستحكامات ، حتى وهى فى فنائها الماثل أمامى لتثير فى نفسك إحساساً قوياً بما تستطيع الجهود الانسانية تحقيقه من أعمال عظيمة على مر العصور وتوالى القرون .

لقد وصف هيرودوت مصر بأنها هبة النيل ، ويمكننا وصف بلخ بأنها هبة النهر المسمى باسمها . إن نتوءاً من جبال هندوكوش يمتد مسافة طويلة فى سهل أمور داريا ، وواجهته الخارجية حائط جبلى جاف قاحل . ولكن بعض المواطن كأن يد ساحر أقوى من النبى موسى ، أو إله أقوى من يوسايدون إله البحر فى أساطير الأغريق ، قد شقت الصخر وأخرجت نهراً يجمع مياه مرتفعات هزارة جات الهائلة . تستطيع عبور النهر عند مخرجه من الخانق ، ذلك بفضل الكوبرى المقام علي الخانق هناك . وعندما تقف فوق هذا الكوبرى تستطيع أن تقدر حجم الماء المتدفق من الجبل ، وهذه الكميات الضخمة من المياه تنساب إلي السهل الأعظم فتروى إقليما من أخصب بقاع الأرض ، أنها أرض بكر ، وما أن يصلها الماء حتى تدر كل أنواع المحاصيل الزراعية والفاكهة . ولقد ظل الانسان طوال ثلاثين قرنا ، بل ربما ضعف ذلك ينتزع أكبر فائدة ممكنة من ماء نهر بلخ ليروى السهل ويهيء القوت لنفسه ولحيوانه .

فما أن يصل النهر إلي السهل حتى ينقسم إلى ست قنوات كبرى . وهذه القنوات بدورها تنقسم إلى مجارى مائية فرعية . وتتجه المجارى المائية نحو الغرب

مسافة خمسين ميلا حتى تصل إلي ماوراء أقجه ، وهكذا ترى أن بلخ وسط واحة من أكبر واحات العالم .

وهى وإن كانت قائمة فى وسط السهل المروى إلا أنها أيضاً على مقربة من الخانق الجبلى وبذلك تستطيع التحكم فى توزيع الميـاه عند اتجاهها غرباً .

ليس فى استطاعة إنسان أن يقدر عمر مدينة بلخ فالقول بأنها « أم المدائن » تنازعها فيـه اليوم مدينة أريحا . وتستند أريحا فى قولهـا بأنها « أم المدائن » بالحفائر والكشوف الأثرية ، ذلك ان مياه الينابيع الواقعة حول أريحا لم تمنع علماء الآثار من التنقيب والوصول إلى الطبقات التى تحت التربة التى تكونت فى العصر الحجرى الأخير . أما فى بلخ فإن وفرة المياه السطحية التى جلبها نهر بلخ جعلت من الصعب النزول بالحفائر إلي ما دون مستوى كوشان ، والمعروف أن حكم أباطرة كوشان فى بلخ لا يمتد إلي أكثر من القرن الأول الميلادى وقـد يمكن العثور على قطعة من الفخار فتحدد مرحلة كاملة من مراحل المدينة ولكن الأسوار المبنيـة من الطين ، حتى ولو كانت علي ضخامة هائلة كأسوار بلخ ، لا تستطيع كشف اسرار التاريخ لعلماء الآثار .

إن العمائر المبنية من اللبن المجفف فى الشمس لا تستطيع تحديد الزمن . فمثـلا فى مدينة بلخ إذا ألقيت نظرة من برج القلعة على المناطق المجاورة شاهدت « رباطا » أى حصنا على شكل مربع على كل ركن من أركانه الأربعة برج مستدير ، وهذه الأربطة كانت فى عهد الأمير عبد الرحمن ، أى فى أواخر القرن الثامن عشر . وإذا ما قورن عمر الرباط بعمر مدينة بلخ ظهر بجانبها حديث العهد ومع ذلك فأسـوار بلخ ورباط الأمير مبنية من نفس المـادة وهى اللبن المجفف . واعتقادى أن الأركيولوجيين سـوف يقضون ألف سنة أخرى قبل أن يكشفو السر حول عمر مدينة بلخ وقد تأكد لي ذلك عند عودتنـا من بلخ إلى مزار شريف فقد مررنا بحصن مهجور من تلك الحصون المربعة ، وفى وسط هذا الحصن الخرب تبين لنـا بأن الدور الخربة

قد هجرها أهلها فى نفس الوقت الذى حل فيه الدمار بمدينة بلخ نفسها . ولما تحرينا صحة الأمر تبين لنا ان هذا الحصن حديث العهد إذ أنه بنى خصيصاً للأمير عبد الرحمن خان فى صباه عندما كان يمارس التدريبات العسكرية استعدادا للمستقبل الذى ينتظره .

والنتيجة التى نستخلصها من ذلك كله أن الطين الذى كان مادة البناء فى واحة بلخ جعل كل مبانيها الأثرية كأنها أقيمت فى عصر واحد .

وإذن فكل مانستطيع أن نعرفه عن تاريخ مدينة بلخ باستثناء تلك الآثار الضخمة التى تتمثل فى أسوارها المقامة من الطين ، هو انها ظلت واحدة من أكبر مدن العالم لفترة لا تقل عن أربعة آلاف سنة منذ ظهرت الحضارة الانسانية على وجه الأرض . ولم تمد عليها يد الدهر وينطوى ذكرها إلا منذ سبعمائة وخمسين عاما فقط .

ذلك أنه فى تلك الحقبة من الزمن توالت عليها ثلاث نكبات كبرى من اعداء حلوا إليها ألوانا مختلفة من الهلاك والتدمير . النكبة الأولى جاء بها المغول تحت قيادة زعيمهم جنكيز خان ، والثانية من الترك تحت قيادة تيمورلنك وأخيرا جاء الفتح العربي فى عهد الخليفة على ، ويبدو أن أشد الضربات هى التى تلقتها بلخ علي أيدى الخليفة على ، ذلك أن الفاتحين الآخرين استطاعا أن يحطما وسائل الرى التى أنشأتها بلخ طوال عهدها بالحضارة ، كما أنهم جعلوا المدينة حماما من الدم بذبح أكبر عدد من أبنائها . ولكن أهل بلخ كانوا يستطيعون النهوض بعد كل كارثة من هذه الكوارث فيصلحون قنواتهم ويسدون الثغرات التى خلفها الغزاة فى أسوار المدينة ويعيدون الحياة فيها إلي بعض ماكانت عليه من قبل . ولم يخطر ببال أحد أن الواحة التى يرويها نهر بلخ سوف يكون لها عاصمة أخرى غير مدينة بلخ . أما الضربة القاضية على مدينة بلخ فهى تلك التى وجهها إليها الخليفة علي . ففى القرن الخامس عشر الميلادى ، بينما كان خلفاء تيمورلنك حكاما على المنطقة تم اكتشاف قبر الخليفة الرابع على فى بقعة تبعد قليلا عن مخرج نهر بلخ من الجبل ، وقد عرف المكان منذ ذلك الوقت باسم مزار شريف . وقد اقيم حول ضريح هذا

البطل الاسلامي مسجد نخم ومن حول المسجد مدينة كاملة . أما المسجد فهو الذى اشتهر باسم المسجد الأزرق وأما المدينة فهى مدينة مزار القائمة حاليا ، ولما لم يكن فى الواحة متسع لمدينين كبيرتين فقد تضاءلت بلخ كلما ازدادت مدينة مزار عمرانا ، وفى النهاية ازدهرت الثانية وأقفرت الأولى . وهذا يذكرنا بنفس ماحدث من قبل فى بابل بين مدنها الثلاث : سيلوفيا وكتسيفون و بغداد .

ولما اغتصبت مدينة مزار الناشئة مكانة بلخ ، تلك المكانة التى طالما كانت حكرا لها على مر العصور ، فقد اصبح الحليف الطبيعى لمدينة بلخ مدينة النجف [مركز الشيعة] فى العراق وهى التى تنازع مدينة مزار شرف فى ضم قبر الامام على .

ولما كانت الكوفه التى قتل فيها علي ابن أبى طالب بعد مرمى حجر من النجف . بدعوى أن النجف تضم قبر على أشد إقناعا من دعوى مزار البعيدة جدا عن الكوفه وملايين من الشيعة يتمنون أن يدفنوا فى النجف باعتبارها الارض الطاهرة لاعتقادهم فى صحة وجود قبر على بهذه المدينة .

ولكن وجود ضريح على فى مزار هو خير ما يرد به المسلمون السنيون على الشيعة فى انهم فازوا بوجود ضريح الخليفة الرابع لديهم ، ذلك أن الشيعة يحاولون دائما إثبات أن عليا شهيد اختص به الشيعة وحدهم دون غيرهم من المسلمين . ولكن السنين باكتشافهم لقبر على فى مزار شريف وبناء المسجد الأزرق حوله ، أثبتوا انهم لايقلون ولاء وحبا لعلى عن هؤلاء الشيعة المتعصبين له .

وفى وسط هذا الشد والجزب بين الشيعة والسنية على ملكية قبر بطل من ابطال الاسلام ، ظهرت اتجاهات وسياسات دينية متعارضة كانت بمدينة بلخ ضحية لها . ولقد كان هذا ايضا نفس المصير الذى لقيته مدينة نيسابور ، فان الذى اخرج اهاليها منها وتركها قاعا صفصفا لم يكن جنكيز خان وانما هو

الامام « عليّ الرضا » ذلك أن وجود قبر هذا الامام قرب نيسابور جعل الأهالي يهجرون مدينتهم ويلوذون بجواره تماما مثل ما هجر أهالى بلخ مدينتهم ولاذوا بجوار ضريح الخليفة على .

ان هذه السنوات السبعمائة والخمسون من التدهور والاضمحلال لتعتبر فى عمر بلخ التاريخى المديد فترة طارئة . ذلك أن الحياة وقد دبت اليوم فى عروقها وتجاوبت أصداء هذا الانتعاش بين أسوارها الطينية الضخمة ، وليس من المتوقع فى المستقبل القريب أن تستعيد بلخ مكانتها التاريخية القديمة التي اغتصبتها منها مدينة مزار شريف ، ولكن بلخ تستفيد اليوم فائدة كبرى من النهضة الاقتصادية التى شملت الواحة كلها ، وهذه النهضة ليست إلا جانباً من النهضة الاقتصادية الشاملة التى عمت أرجاء أفغانستان .

ولقد ظل نهر بلخ فى عهود الخير والشر يستمد مياهه من مرتفعات هزار جات فيحمل الخير والنماء إلى السهل ، ولن يقف شريان الحياة فى مدينة بلغ التاريخية طالما جرى النهر حاملا إسمها ، ومن يدرى فقد تنتعش آمال بلخ وتنهض من كبوتها مرة أخرى .

ان الحيوية الشاملة التى شاهدنا آثارها فى كل بقعة من بقاع الواحة الكبرى ظهرت لنا واضحة جلية يوم أن سافرنا من شبرغان إلي مزارعن طريق أقجه . فقد تصادف أن كانت رحلتنا يوم الإثنين وهو يوم السوق فى كل من مدينتى شبرغان وأقجه ..

فما أن غادرنا شبرغان حتى قابلتنا جماعة كبيرة من الفرسان متجهة غربا إلى سوق البلدة . ولقد شاهدنا على جانبي الطريق حقولا خضراء يانعة ولكننا لم لم نستطع معرفة الوسيلة التى تم بها نقل المياه إلى هذه الحقول من نهر شبرغان الصغير . كذلك لم نستطع تحديد خط تقسيم المياه بين نهر بلخ ونهر شبرغان .

وإذا كنا قد عجزنا عن معرفة خط تقسيم المياه الجغرافى فقد استطعنا معرفة خط التقسيم البشرى .

ذلك أن هؤلاء الفرسان قد اتجهوا وجهة أخرى وبدلا من أن يتجهوا إلى شيرغان ، تجدهم قد اتجهوا نحو أقجه . وكان من حسن حظنا أننا نسير فى نفس اتجاههم . وقد لاحظنا أنه كلما تقدم الركب ازداد عـدد الفرسان إلى درجة لم أعهدها منذ طفولتى .

تبين أن هؤلاء الفرسان من الأوزبك فى طريقهم إلى السوق لبيـع شاة أولشراء صفيحة من الـكيروسين .

ولـكنهم جميعاً كانوا فى ركبهم هذا تلوح عليهم مخايل العظمة وتحيط برأس كل منهم هالة من الاعتداد بالنفس وكأنهم نسوا ماهم فيه من عيش وضيع وتخيلوا أنهم فى موطنهم الأول مع آبائهم وأجـدادهم من فرسان آسيا الوسطى الذين اكتسحوا العالم المتمدين فى بضعة قرون .

٢٧ ـ مشاهدة نهر آمور داريا :

منذ طفولتى وأنا أحلم بأن أوفق يوماما لمشاهدة نهر آموردار يا ، ذلك النهر الأسطورى الذى يقيم حداً فاصلا بين إيران وطوران ويكون حالياً حداً فاصلا بين أفغانستان والاتحاد السوفيتى. كان هذا مجرد حلم ولم أتخيل أنه سوف يتحقق يوما ما . ولكن الحلم أصبح حقيقة وها أنذا أقف أمام آمور داريا وأسير على شاطئه كما أشاء . وأنتقل إليه من أى جهة أردت ، سواء من ناحية مزار شريف أو من ناحية « قندز » وقد أشار علي البعض أن اختار الوصول إلى النهر من ناحية قندز نظرا للأمطار الغزيرة التى هطلت على غير عادة فى هذا العام .

لقد وقفت فوق أعلى أكمة فى بلخ وألقيت ببصرى فى اتجاه الشمال فوجدت أمامى حقولا واسعة ممتدة امتداداً لا نهاية له . وأدركت أنه فى المكان الذى تفرغ فيه قنوات الرى آخر نقطة من مائها ينتهى الزرع وتبدأ الصحراء المجدبة بين راحة بلخ وبين شاطئ آموردار يا من ناحية افغانستان .

قيل لى أن على « أن أعبر صحراوين : إحداهما بين مزار ونهر قندز والثانية بين مدينة قندز وأول نقطة ألتقى بها مع نهر آموردار يا فتخيلت أن هذه الصحراوات ليست إلا امتدادا للسهل باستثناء المـاء الذى تخلو منه طبعاً بانتهاء قنوات الرى ، ورضيت بنصيبى من القيام برحلة كئيبة فوق الرمال .

وعندما غادرت مزار وما يحيط بالانتقال من سفر شاق — أدركت أن اختيار هـذا المكان ليكون ضريحا للامام على لم يكن مجرد صدفة أو لأن المكان يبعث على الراحة والدعة أو أنه سهل الاتصال بالأراضى الزراعية . فالواقع أن مزار تقوم على الطرف الشرقى الأقصى لواحة بلخ وخصوبة الأرض لا ترافقك فى هذا الطريق إلا لمسافة قصيرة لا تتجاوز الميلين وبعد ذلك تبدأ الصحرا برمالها

وحصاها . وبعد أن تقدمنا قليلا واجهنا بناءاً مستطيلا غاية فى الضخامة على منحدر جبلى فيما وراء مدينة طاشقورجان التى كنا فى طريقنا إليها .

ليس من المعقول أن يكون هذا البناء الضخم أحد الربط التى أقامها الأمير عبد الرحمن خان. إذن ماهو ياترى ؟ هل هو آخر مدينة قديمة مهجورة، أم أن تلك القبة التى تعلو أسواره الضخمة ضريح أحد أئمة أهل السنة من المسلمين ولعله الخليفة عمر ؟ . لقد كنت أتحرق فضولا منى لرؤية ما بداخل هذا المبنى . ولكن أسعفنى أحد رجال الشرطة إذ قادني إلى طريق جانبي يؤدى إلي مكان منخفض من تلك الأسوار العالية فأمكننا اقتحام الأسوار .

وقد تبين لنا أن ما بداخل الأسوار لم يكن خرائب مدينة قديمة وإنما هو بستان جميل وأن القبة ليست إلا زخرفة أقامها صاحب البستان . لأنها من مخلفات الأمير عبد الرحمن ولم يكن القصد منها — إقامة تحصينات ووسائل دفاعية ولكن للبهجة والسرور .

وقد علمنا من حاكم المنطقة أن هـذا البستان قد أطلق عليه اسم « جاهان نما » أى « منظار العالم » ، فإذا صعدت إلى الشرفة العليا المقامة حول القبة تكشفت أمامك كل المنطقة المحيطة بك ، فهناك شريط من الخضرة ينتهى عند سفح الجبل وهو دليل علي وجود مجرى ماء يسيل من الجبل فيبعث الحياة فى الأرض القفر ، وعلى جانب النهر تشاهد خرائب قلعة قديمة . وفى أسفل البستان تقع المدينة الحالية وهى مدينة طاشقورجان وسط واحة خضراء ، وهى لا تمتد حتى الأفق كما هو الحال فى واحة بلخ . ويمكنك بنظرة واحدة من أعلى الشرفة أن تحيط بكل ما فى طاشقور جان من زرع وشجر . ولكن إذا هبطت إلى المدينة ومررت بأسواقها الكبيرة الواسعة أدهشك أن يستطيع الإنسان بمثل ذلك المقدار القليل من الماء الذى يجلبه الجدول الصغير إنشاء مجتمع كبير كهذا لأنه ملئ بالخيرات من محاصيل زراعية وفاكهة . وما أن يمتد طرفك إلى ما بعد الراحة حتى ترى « الدشت » فى الصحراء وقد أحاطت بها من كل جانب . ولولا ما كان يغشي الجو من ضباب رقيق لرأينا صفاً طويلا من الأشجار يمتد على طول مجرى نهر آمورداريا .

وعلى بعد من مكاننا هـذا يوجد ممر شياغلوكوتل الذى يؤدى إلى سهل فسيح ثم منطقة من التلال المكسوة بالخضرة والزهور، تذكرنا بتلال قلعة [نو] وبظهور التلال الخضراء ظهرت الخيام وقطعان الغنم والجمال .

تقدمنا فى السير حتى بلغنا واديا مكسوا بالخضرة يرويه نهر قنـدز ومن هناك استطعنا أن نستمتع بمنظر الشمس وقت الغروب وقد انحدرت إلى ما وراء نهر آمور داريا حيث جبال جمهورية تاجيسكتان السوفييتية .

وتقع مدينة قندز على هضبة مثلثة الشـكل مكسوة بالخضرة بين نهرين يجتمعـان عند رأس المثلث وهما نهرا قندز وخان آباد . والغريب أن المياه التى يحملها نهر قندز من الثلوج الذائبة فى المناطق الجبلية أكثر من مياه الأنهار الخمسة التى شاهدناها فى قندهار .

اتجهنا إلي قزل قلعة وهى الميناء النهرى الجديد الذى أنشيء على الشاطئ الأفغاني لنهر آمورداريا . ولمـا صعدنا إلى مرتفع تكشف لنا مخيم هائل لم نشهد مثله من قبل . وقد أحاطت بالخيام قطعان لا عدد لها من الغنم والبقر . كأن الآدميون وقطعانهم يستمتعون بالخضرة إلى أقصى حد . وهذه البقعة اسمها تخت زال ، وما كان لهم أن يخشوا قدوم الصيف الحار الجاف ، لأنهم إذا اقترب الصيف ساروا بقطعانهم وخيامهم إلى المراعى الصيفية فى باداخشان : وما كانت قطعان الغنم والمـاعز والبقر المنتشرة فوق الهضبة الخضراء تثير انتباهنا بقدر ما أثاره منظر الخيل المنطلقة فى حرية كاملة ترعى الكلأ . وقد ذكرتنى هـذه الخيول بمنظر خيول التتار التى نراها فى الواحات الصيفية .

وقد امتدت الهضبة الخضراء عشرات الأميال فى اتجاه آمور داريا وأخيراً ألفينا أنفسنا وقد عدنا إلي التلال الرملية مرة أخرى .

وهنا اختفت الخيمة الباختونية وظهرت فى مكانها خيمة تركمانية ولاحت لنا أعمدة طويلة فى الجانب السوفيتى خيل إليّ أنها أعمدة لاسلكى . أخيراً تأكدت أنها جزء من معدات أحد أبراج المراقبـة التى أقامها السوفييت على طول خط

الأسلاك الشائكة الذى يقف حاجزاً بين أفغانستان « والستار الحديدى » .
وأخيراً وقفنا على شاطئ آموداريا .

كم يبلغ عرض النهر هنا عند قزل قلعة ؟ يخيل لي أنه يبلغ مائتى ياردة ، ويمكننى القول أنه فى هذا المكان أكبر من نهر السند عند مدينة أتوك ، أو هو مساو لنهر الألب فى المنطقة الواقعة بين مدينتى كولونيا وبرلين . وإذا كان آموداريا هنا بهذه السعة فلا بد وأن يكون أكبر من الراين عند ملتقاه مع آخر نهيراته ، ومنها قندز وخان اباد اللذان سبق ذكرهما .

فهذان النهران يشقان طريقهما وسط رمال الصحراء حتى يبلغا أموداريا وهذا بخلاف ما عليه أنهار بلخ ومورغارب وهارى رود التى تختفى نهائياً فى رمال الصحراء . وكما أن أموداريا يغذيه من الجانب الأفغانى نهرا قندز وخان أباد فكذلك يغذيه من الجانب السوفييتى فى تاجيكستان نهر هام آخر هو نهر وكش .

ويبدو أن الجغرافيين الأغريق أخذوا اسم أموداريا وهو عندهم (أوكساس) من اسم نهر وكش ، ظنا منهم أن وكش هو النهر الأصلى وأن أموداريا فرعه .

إن إنشاء أفغانستان لهذا الميناء النهرى على نهر أموداريا وهو ميناء قزل قلعة قد يحدث انقلابا كبيراً فى نظام المواصلات بهذه البلاد . فقد جرت العادة أن تستورد أفغانستان كل ما تحتاجه من الخارج من سلع عن طريق ميناء كراتشى فى باكستان. ثم تنقل البضائع بالسكك الحديدية من كراتشى إلى بشاور ومن هناك تنقل باللوريات من بشاور إلى كابل وبقية المدن الأفغانية . أما الآن فقد استخدم طريق نهر اموداريا الجديد . وعن هذا الطريق تنقل البضائع بالسكك الحديدية من تشكوسلوفاكيا مثلا حتى تصل إلى ميناء ترمز السوفييتى على نهر أموداريا ومن ترمز تنقل فى النهر حتى ميناء قزل قلعة الأفغاني وهو واقع على نهر أموداريا أيضاً كما سبق أن ذكرنا .

ويقوم المهندسون السوفييت فى الوقت الحاضر بشق نفق فى جبال هندوكوش لحساب حكومة أفغانستان . ويجرى شق هذا النفق تحت ممر سالانج الجبلي ،

وعندما ينتهى شق النفق فإن الطريق بين (قزل قلعة وكابل) سيصبح سهلا لمرور السيارات من الطريق الحالي بين بشاور وكابل ، وبذلك تنتقل حركة النقل البرى إلى أفغانستان من طريقها الحالى عبر باكستان إلى طريق جديد عبر بلاد الاتحاد السوفييتى .

ولن تكون هذه أول مرة تصبح فيها الملاحة النهرية فى أموردار يا عاملا حاسماً فى تاريخ العالم ، ففى القرن الثانى قبل الميلاد استخدم الإيرانيون ما تعلموه من فن الملاحة على نهر أموردار يا فى تسيير السفن محملة بالبضائع فى مجارى نهرى (هلموند والسند) .

وهؤلاء الايرانيون الذين يطلق عليهم اسم « الساكا » كانوا يقومون بغزواتهم وفتوحاتهم عن طريق النهر ، كما يقومون بها على ظهور الجياد ، وقد تبعهم فى ذلك القوزاق فى عصر متأخر .

وليس من المحتمل ان يقوم اليوم ملاحو نهر أموردار يا السوفييتى بغارات نهرية علي بلاد أفغانستان كما فعل أجدادهم من قبل، إذ من المستبعد أيضاً ان يفكروا فى السيطرة عليها بقوة السلاح ، ولكنهم سوف يحاولون اجتذابها كما تجذب الشمس زهرة عباد الشمس .

ومن حق السوفييت ان يفعلوا ذلك إن استطاعوا ، فلكل إنسان الحق فى جلب المنفعة لنفسه ما استطاع إلي ذلك سبيلا .

كذلك من حق باكستان والعالم الغربي ان يتسابقوا مع السوفييت فى اجتذاب أفغانستان بأن يجعلوا طريق (كراتشى ـ بشاور) أكثر جاذبية من طريق ترمز قزل قلعة النهرى بين الاتحاد السوفييتى وأفغانستان .

عندما وقفت علي رصيف ميناء قزل قلعة وألقيت نظرة على السفن السوفييتة وهى تقابل اللوريات الأفغانية ، تمنيت مخلصاً ان يوفق الأفغان والسوفييت فى هذا المشروع الاقتصادى الجليل وإذا عزّ لغربي ان يضمر للطرفين العداوة

بسبب توفيقهما إلى هذا المشروع ، فهو فى ذلك قصير النظر ، بل قل انه حقود حسود .

نحن نعيش فى عصر اصبحت فيه مصالح العالم متشابكة واصبحت حياة كل شعب متوقفة على مدى تعاونه مع الشعوب الأخرى ورخاء بلد من البلاد فى الوقت الحاضر متوقف على رخاء غيره من البلاد .

وأفغانستان فى هذا ليست شاذة عن القاعدة ، فلا بد لها من خطوط مواصلات كافية لتجارتها الخارجية .

ومن هنا لا يسعنى إلا ان أهتف عالياً : اتمنى لقزل قلعة كل رفعة وهناء !! .

٢٨ — سرخ كوتل (التل الاحمر)

ان غالبية اليابسة التي على سطح هذا الكوكب وجانبا كبيرا من بحاره يجذب إليها المؤرخ انجذاب المفتون . إن الأنسان أو الطبيعة أوهما معا يعنيان بهذا الأمر .

ولكن رحلة واحدة ، حتى لو شملت هذه الرحلة العالم بأسره ، بل حتى لو ظل الانسان طول حياته متنقلا رحالة بين البلاد فإنه لن يستطيع أن يلم من سطح هذا الكوكب إلا بالنزر اليسير . ففي كل خطوة منظر جديد وأفق جديد ، وكلما أوغل الإنسان في الرحيل كلما أدرك أنه لم يكتشف من العالم إلا القليل ومن هنا تبدأ متاعبه التي لو اكتفى بالقبوع في عقر داره لما تجشمها .

كانت خطتنا أن نقوم برحلة دائرية حول أفغانستان . ولكن ما أن بدأنا من كابل وسرنا في اتجاه شمالي غربي صوب هيرات حتى تبدى لي لو استطعت أن أولي وجهي شطر الجنوب لرؤية سجستان حيث تتفرع دلتا نهر هلموند قبل أن يفرغ ماءه .

تذكرت صورة طبعت في ذهني منذ أيام طفولتي لرحلة ماركو بولو إلى الصين . ومنذ أن غادرت شبرغان في رحلتي هذه إلى أن وصلت قندز ، كنت أسير في اعقاب ماركو بولو . ولكن عند قندز غير بولو اتجاهه فقد اتجه إلى الشرق عبر سهل خان أباد ومر بطاليقان ثم صعد في مرتفعات باداخشان حيث وصل إلى باداخشان وهو في حالة مرضية . ومكث بضعة أشهر في باداخشان حتى شفي من مرضه . ومنذ شفائه ظل يواصل رحلته شرقا حتى بلغ الصين عبر هضبة البامير .

لقد تصادف ان نمى إلى ان العالم الياباني البروفسور ايوامورا كان هو الآخر فى طريقه إلى باداخشان لدراسة حياة القبائل الرحل فى نجوعهم الصيفية حول بحيرة خيوا . وهنا ساءلت نفسي ، ولم لا أزور باداخشان بعد زيارتى إلى سرخ كوتل وباميان ؟ ولما لم يكن من المستطاع تغيير خط سيرى والاتجاه إلى باداخشان ، فقد اكتفيت فى هذه المرة بتقصير رحلتى على سرخ كوتل .

غادرنا قندز وسرنا على طول مجرى نهر قندز وما ان وصلنا على أباد حتى وجدنا خانقا يعترض سبيلنا . وهنا لم يكن فى وسعى إلا ان استسلم للخطر واتنقل فى هذا الخانق حتى اصل إلى أحد الممرات فى جبال هندوكوش .

ولكن هضبة إيران مليئة بالمفاجآت التى تثير عجب السائح الغربى ، لأننا ما سرنا قليلا فى هذا الخانق حتى وجدنا انفسنا فجأة وسط سهل عريض هو سهل بغلان ، ولم نتقدم قليلا فى السهل حتى وجدنا سلاسل جبلية مرتفعة تحيط بنا من كل جانب فعن يميننا جبال وعن يسارنا جبال وفى مواجهتنا جبال ، وكأن هذه الجبال تتساءل : ألم تتوقعوا رؤيتنا . ؟

وهنا خلتنى ارد على الجبال قائلا : لقد قابلتنا جبال اشد منك عتوا فيما بين هيرات وميمنة ، لقد عجزت عن إيقاف قورش والاسكندر وكانيشكا وجنكيز خان وبابر . بل لقد عجزت عن إيقاف ملك الافغان عند اقتحامه لك فى رحلته الأخيرة ، فهل تظنين انك مستطيعة ايقافنا اليوم ؟ . ولما تقدمنا فى سيرنا وصلنا سهلا آخر ومن هناك نظرنا نحو طرفه الغربي وإذا بنا نلمح درجات سرخ كوتل .

مما يثير المشاعر ان تشاهد عيانا ماسبق لك ان رأيته فى صور فوتوغرافية أو خريطة . انى الآن وانا اكتب هذه السطور ارفع عينى عن الورق لأشاهد الأطراف العليا لصف من اشجار الحور المؤدية إلي صخرة وعرة وقد حفر فيها

تمثالان هائلان ، كما ارى بهذه الصخرة عدة كهوف سوداء مظلمة ، وقد فغرت افواهها وكأنها وحوش اسطورية تلتهم ما يصادفها من انســان او حيوان . إن امامى الآن سرخ كوتل .

لقد قضينا بعد ظهر اليوم فى زيارة هذه البقعة الأثرية الشهيرة ، وكان يرافقنا فى هذه الزيارة البروفـور دانيل سلومبرجر رئيس البعثـة الأثرية الفرنسية فى أفغانستان ومعه بعض زملائه من أعضاء البعثة ، إنه لحظ سعيد ذلك الذى وفقنى لرؤية هذا المزار الأثرى الشهير وأنا فى صحبة العلماء الذين اكتشفوه وأزاحوا عنه أكوام التراب .

إذا نظرت إلى سرخ كوتل من قمة الجبل لوجدت أن معبد النار هذا يقوم على رأس أكمة مرتفعة تقطعها وحدة عن الأكمة التالية . وهى فى ذلك تذكرك بموقع مدينة برسيبوليس (اصطخر) على اكمتها العالية وعزلتها عمـا جاورها .

وفى اليوم التالى صعدت إلي قمـة الأكمة الثانية التى يقوم عليهـا حضر من العهد الاسلامى .

إن سرخ كوتل ذات موقع ممتاز فهى ملتقى عدة طرق هامة ينحدر احدها من جبال هندوكوش ، بينما يتجه الآخر نحو واحة طاشقورجان . ولقد كان هذا احد الطرق الرئيسية بين الهند و بلخ منذ فجر التاريخ ولايزال كذلك حتى اليوم .

ولقد اختار موقع سرخ كوتل أحد الأباطرة الذين حكموا ما بين نهرى اموردارِيا وجنا . ويغلب الظن ان هذا هو الامبراطور كانيشكا . الذى كان زعيماً لإحدى القبائل الرحـل ثم بنى امبراطورية فى القرن الأول أو الثـاني المسيحى ، واشتهر بأنه نصير البوذية وراعيها ، وبفضله استطاعت الديانة البوذية أن تعبر جبال هندوكوش إلي شرق آسيا بالتفافها حول الطرفين الغربى والشمالي لهضبة التبت ، ولـكن الديانة التى من أجلها أقام كانيشكا سرخ كوتل ، لم تـكن البوذية ، ولـكنها كانت نوعا من عبادة النار ، قدتـكون الزرارد شتيه أوشيئاً قريباً منها . وقد تـكون لمعبود احتفظ بالنار حية على الهيكل تـكريماً له .

وان هيكل النار يقوم فى وسط معبد مربع الشكل حوله طرقة لغير الكهنة من الطائفين المتعبدين . وهذا الطراز من المعابد مخالف تمام المخالفة للمعابد الأغريقية ، ففى المعابد الأغريقية لا تتركز العبادة حول هيكل النار وسط المعبد ، ولكنها تقوم أمام صورة مجسدة للمعبود مستترة مقدسة ، فى أقصى مكان من المعبد المستطيل ، والفارق بين الطراز من المعابد وبين الفكرة التى يملكها كل منهما ، يبدو واضحاً جلياً فى سرخ كوتل لأن فن العمارة الأغريقى استخدم هنا لزخرفة معبد غير أفريقى . ويتمثل هذا الفن الأغريقى فى القواعد الحجرية للأعمدة وفى وسط الأعمدة الأربعة القائمة فى المعبد نفسه وفى صف طويل من الأعمدة يحمل سقف البهو المحيط بالمربع الذى يقوم وسطه الهيكل .

لقد أطلق اسم سرخ كوتل على هذا المعبد مكتشفوه الأثريون الفرنسيون ذلك أنهم قبل أن يزيلوا عنه التراب ، كانت الأكمة التى وجد بها تسمى سرخ كوتل ومعناها « التل الأحمر ، لأن التربة ضاربة إلي الحمرة ، والأكمة تشرف علي الطريق . ولقد كان هذا المعبد محصناً ، فهناك صف من التحصينات يحيط به وصف آخر من التحصينات أيضاً يقوم حول الأكمة كلها بما فى ذلك المساكن الموجودة بها . والمساكن متواضعة ، ومن هذا نستنتج أن سرخ كوتل وإن كان معبداً وحصنا لم يكن قفراً .

وأهم اكتشاف عثر عليه الأثريون الفرنسيون فى هذا المكان نقوش وكتابة أثرية بالأبجدية الأغريقية ، ولكن بلغة غير الأغريقية . ويظهر بين هذه النقوش اسم الامبراطور كانيشكا عدة مرات . ولا ندرى ان كانت هذه الكتابة الأثرية من عهد كانيشكا نفسه أو انها من مخلفات قوم جاءوا بعده وأرادوا إعادة تجديد ذلك المعبد الذى أنشأه كانيشكا واللغة التى كتبت بها هذه الرموز الأثرية لغة إيرانية مندثرة . ويبدو انها لغة أهل بقطريا وليست لغة حكامها الكوشانيين . وإذا درسنا النقود الأثرية الباقية من عهد كانيشكا حسب ترتيبها الزمنى يبدو لنا ان كانيشكا هو الذى أبطل استعمال اللغة الأغريقية كلغة رسمية لامبراطورية كوشان ، كذلك تدلنا تلك الكتابة الأثرية علي جدران سرخ كوتل ان

كانيشكا احتفظ بالأبجدية الاغريقية كوسيلة يستطيع بها تدوين اللغة الإيرانية . ومن ناحية أخرى نجد البارثيين (فيما يسمى الآن فارس) والصفديين (فيما هو الآن وادى نهر زراف شان وشمال غرب اموردار يا فى إقليمى بخارى وسمرقند) لم يكتبوا لغاتهم الايرانية بالأبجدية الأغريقية بعد ان انحلت الامبراطورية الايرانية القديمة ، وقامت مكانها حكومات اغريقية . بل ان هذه المناطق استخدمت الابجدية الآرامية التى كانت شائعة فى الامبراطورية الايرانية قبل ان يغزوها الاسكندر . وكانت اللغة الآرامية وأبجديتها أكثر اللغات الرسمية استعمالا فى الامبراطورية الايرانية القديمة .

وهذه ليست إلا فتات مائدة هوميروس التقطتها أثناء زيارتي لسرخ كوتل ، أما هوميروس هنا فهو البروفسور شلومبرجر رئيس البعثة الأثرية الفرنسية .

ولا يفوتنى هنا ان أسجل حادثان لا يزال أثرهما قويا فى نفسى . أولهما انى كنت جالساً ذات يوم مع البرفسور شلومبرجر تحت شجرة مشرفة علي ينبوع فى السهل على قرب من مفترق الطريقين الرئيسيين الذين يؤدى أحدهما إلى بلخ والآخر إلى قندز وباداخشان . وكان تحت شجرة مجاورة طفل ينظر إلينا ويبتسم . وألقيت نظرة على الماء فرأيت سرباً من الاسماك تحت سطحه ، وفجأة عادت بي الذكرى قروناً طويلة حيث تخيلت كسرى ابرويز الساساني امبراطور فارس يقوم برحلة صيد فى غيضة . ان نبات الغاب الذى رأيته فى الغدير هو الذى ذكرني بكسرى ابرويز ، ذلك ان النبات الذى أمامى هو نفس نبات الغاب الذى شاهدته فى كرمانشاه .

الحادث الثانى وقع لى فى معبد النار بينما كنا نتناول الشاى انا واعضاء البعثة الأثرية الفرنسية . ففى أثناء تناول الشاى نظرت إلي صورة كسرى وهو يبتسم وينظر إلي الجبل . ترى ، لمن يبتسم جلالته ؟ نظرت الى الناحية الاخرى فوجدت فأراً من فيران الجبل قد وقف على خلفيتيه وأخذ يحدق فى صورة الملك . لقد أثار عجبي منظر الملك بين فيران الجبل ! .

٢٩ — باميان :

عند بدأت رحلتنا إلى بأميان فى صباح اليوم التالى كان نهر قندز قد ضاعف سرعة تياره فداخلنا بعض الخوف من اضطراب الجو وفى أثناء المسير ضاق الطريق وأدركنا أننا نمر فى خانق جبلى ، وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا أمام سفوح هندوكوش فى أسفل الطريق الشمالى لممر سالانج الذى يرتفع عن سطح البحر اثنا عشر ألف قدم . أما النهر الذى عبرناه فلم يكن نهر قندز ولكنه نهر « انداراب » والنهران يلتقيان بعد أن يكون انداراب قد هبط من ممر خاواك فى حين أن قندز قد هبط من ناحية ممر شيبار وعندما عبرنا الكوبرى الذى فوق النهر سرحت ببصرى إلى أعلى فشاهدت كوبريا آخر فوق نهر انداراب . وعلمت أن هذا هو الكوبرى الذى يسير فوقه الطريق من قندز ثم يتجه جنوبا نحو النفق الذى يقوم المهندسون الروس بشقه فى جبال هندوكوش تحت ممر سالانج . وعندما يتم إنشاء هذا النفق سوف يكون هناك طريق مرصوف بين قزل قلعه على نهر آمور داريا وكابل عاصمة أفغانستان .

ولقد مررنا فى طريقنا بنهر سور خاب وبعد أن جاوزناه متجهين نحو نهر باميان ، وجدنا أنفسنا فى خانق جبلى مرتفع الجوانب الى حد مخيف .

وهناك كانت مياه النهر تتلاطم وترتطم بالصخر بشكل مزعج . وبينما نحن نسير صاعدين فى الجبل ، إذا بالصخر ينفرج عن أرض مسطحة مغطاة بالحقول الخضراء ومازلنا نسير بين حقول وزرع وخضرة حتى وصلنا نهر باميان . وفى هذه المنطقة يلتقى نهر باميان بفرعه كالو فيتوفر الماء ويجرد الزرع وفى أعلى هذا المكان يمتد طريق إلى كابل ولكنه لا يسمح للسيارات بالمرور لضيقه وكثرة تعرجه وعدم استوائه .

وعند ملتقى باميان بفرعه كالو أيضاً يرتفع جبل أرجوانى اللون وعلى قمته

حصن بنفس لون الجبل . وإذا نظرت فى اتجاه الحصن وقع بصرك على أسوار تلو أسوار بهذا اللون الأرجوانى وفى أعلاها برج بنفس اللون أيضاً .

هذا هو حصن شهر زوهاك . ويعتقد الأثريون أن الأتراك الغربيين أقاموه فى القرن السادس الميلادى وهو يشرف على المناطق المتاخمة لباميان من ناحية الشرق . ووادى نهر باميان المواجه للحصن ملئ بأحراش من أشجار الحور تمتد مسافة طويلة ، ويلى الأحراش بساتين الفاكهة ومن ورائها حقول القمح . وعندما كنا فى وادى باميان فى منتصف مايو كانت أشجار الفاكهة قد بدأت تنبت زهراً وحقول القمح لا تزال نباتاً قصيراً قريباً من سطح الأرض . وأذكر أننا عندما كنا فى سهل بشاور فى مارس كانت أشجار الفاكهة قد أزهرت زهراً كاملا ، أما فى راجاستان فقد كان الفلاحون يدرسون القمح فى شهر إبريل ، ولكن لا ننسى أن فصول السنة فى باميان تعكس جوا يرتفع عن سطح البحر بمقدار ٨٣٠٠ قدم .

وهنا يتسع الوادى شيئاً فشيئاً ولكن فى نهاية الوادى تشاهد صفا من الصخور الشديدة الانحدار تتخللها كهوف نحتها الرهبان البوذيون فى قلب الصخور . وكلما اقترب صف الكهوف من بوذا الأصغر اشتد تقاربها حتى تكاد تكون ملاصقة لبعضها إذا ما وصلت إلى تمثال بوذا الأكبر . والتمثالان مقامان داخل كوة منحوتة فى الصخر . وخير مكان تشاهد منه باميان هو قمة شهير جلجلة فهى التي تشرف على الوادى اشرافا كاملا من جهة الجنوب . ومن هذا المكان تشاهد أمامك صفان من الجبال العالية التى يغطى الثلج قممها حتى فى شهر مايو . والسلسلة الجنوبية من هذه الجبال هى سلسلة كوة بابا وهى امتداد لجبال هندوكوش . وامتداد وادى باميان من الخانق الجبلى الذى خرج منه إلى الخانق الآخر الذى ينحدر إليه يبلغ ١٧ ميلا . وهذه المسافة هى نفسها امتداد الحقول الخضراء من أقصي الطرف الشرقى إلى أقصى الطرف الغربى، أما عرض هذا الجبل فإنه لا يزيد عن نصف ميل . وهكذا تجد الخوانق تعمه والقمم العالية المغطاة بالثلج واحة من الأرض الخصبة ليس لها مثيل .

لم ينحرف طريق السفر عن وادى باميان إلا فى السنين الأخيرة بعد استخدام

السيارات كوسيلة للنقل والانتقال . أما قبل ذلك التاريخ فقد كان وادى باميان هو الطريق الذى يتخذه المتنقل من حوض آمورداريا إلى حوض السند .

وظل الحال كذلك عشرات القرون . ولم يكن المسافر يمر بوادى باميان فقط بل كان يلقى هناك عصا الترحال إلى فترة ما حتى يستريح من عناء السفر . وكانت فترة الاستجمام فى وادى باميان تمتد اياما ، بل اسابيع حتى شهورا بأكملها . ولما أن أتاح وادى باميان للبوذية الانتقال من الهند إلى شرق آسيا عبر هندوكوش فقد أظهر أتباعها امتنانهم له بإقامة تمثالى بوذا اللذان سبق ذكرهما.

وقد بطلت ممارسة البوذية فى الوادى منذ ما يقرب من إحد عشر قرناً ، ولكن الهدوء والسكينة وهما من خصائص البوذية لايزالان يسودان جو المكان ، فكل ما يحيط بك فى هذه البقعة من الأرض يوحى إليك بالسكينة والسلام . وكلما تأملت ، كلما أحسست بأن هذه السكينة تنزل رويداً على نفسك الغريبة القلقة .

٣٠ – عبور هندوكوش للمرة الثانية

كانت باميان آخر محطة فى رحلتنا الدائرة حول أفغانستان ، والمفهوم أن عودتنا إلى كابل بالسيارة لن تستغرق اكثر من يوم واحد ولكن لاتنسى أن المقيم فى باميان يكون على الجانب الآخر من هندوكوش ، وليس عبور هندوكوش بالأمر الهين ، وقد أثبتت لنا ذلك تجربتنا المريرة عندما عبرنا السلسلة الوعرة فيما بين هيرات وقلعة نو ، وإذا كان ممر سبزك قد اذاقنا الأمرين فانه على أى حال لا يزيد فى الارتفاع عن ٨٠٠٠ قدم ، أما ممر شيبار الذى أمامنا الآن.فهو يرتفع عن سطح البحر بمقدار ٩٨٠٠ قدم . ولابد من اختراقه كي نصل إلى كابل .

اتخذنا نهر وادى سورخاب طريقا لنا فى هذه المرة وكلما سرنا مع مجرى النهر كلما اتسع الوادى وشح ماء النهر حتى اختفى نهائيا ووجدنا أنفسنا فوق عتبة بين الجبال المكسوة بالثلوج ، ففى جنوبنا جبال كوه بابا ، وفى شمالنا جبال سالانج التى هى امتداد لجبال هندوكوش . انتهينا من العتبة الجبلية إلى واد منخفض به منابع نهر تبين لنا أنها منابع نهر غبور باند . ومادام هذا هو نهر غبورباند فنحن الآن فوق ممر شيبار . ومعنى هذا أننا اجتزنا خط تقسيم المياه بين نهرى أمور داريا والسند .

ان نهر غورباند نهر غريب الأطوار ، فهو فى مجاريه العليا ذو منظر جذاب يثير نفسك الشاعرية حتى ليخيل إليك أنك فى انجلترا منطقة البحيرات التي أثارت شاعرية ورد سورث .

وهناك يستطيع حمل صغير أن يعبر النهر دون أن يبتل حافراه . ولكن

بعد قليل يتقلب الحال غير الحال ويصبح هذا النهر الوديع سيلا جارفا غاضباً مزمجرا يغمر الوادى بمياه فيضانه ويغرق الزرع ويقتلع الأشجار .

ليس هذا من عمل غورباند وإنما هى نهيراته التى سببت هذه الاساءة . فالنهيرات تتدافع إليه من الشقوق الجبلية فى قوة وعنف من اليمين ومن اليسار وقد مررنا بعدد من هذه النهيرات لايقل عن ستة عشر نهيرا .

لقد كان اثنان من هذه النهيرات غاية فى العنف حتى لقد وقفت حركة المرور عند أحدها وقوفا تاما لفترة طويلة بسبب اللوريات التى اغرقها السيل ولولا ما كان لدينا من سلاسل استطعنا بها أن نجر بعض اللوريات من وسط السيل لما أمكن استئناف المرور فى هذه المنطقة .

وأشد من ذلك خطرا أننا اوشكنا على الاصطدام بمؤخرة إحدى ماكينات تسوية الأرض وكانت تحاول جر سيارة من وسط السيول .

وأخيرا استطعنا التخلص من كل تلك المآزق التى سببها لنا نهر غورباند ونهيراته ، وألفينا أنفسنا على أبواب كابل .

٣١ — الانتقال بالسيارة أم على الاقدام

يحسن بمن يريد دراسة طرق المواصلات فى أفغانستان أن يبدأ أولا بدراسة هذه الطرق قبل استخدام الوسائل الميكانيكية الحديثة وخير من ذلك أن يصطحب تلك القوافل التى لاتزال تتنقل سيرا على الأقدام لا بواسطة النقل الميكانيكى ، وإذا استطاع أثناء رحلة القافلة أن يكسب ثقة الدليل ويحصل على مالديه من علم بتاريخ الانتقال فى أفغانستان فسوف يحصل على معلومات تاريخية تتضائل بجانبها المعلومات التى يهيئها له الانتقال بالسيارات .

أن خريطة طرق المواصلات الحالية فى أفغانستان هى اسوأ مرشد إلى الخريطة التقليدية التى تعتمد على طرق القوافل . حقيقة أن الطرق الحديثة التى شقت وسط الخوانق والممرات الجبلية أكثر أمانا وأعظم سرعة ولكنها تخفى معالم التاريخ الأفغانى اخفاء يكاد يكون تاما . أن مهندسى الطرق الحديثة تغريه الخوانق الجبلية فهى لا تكلفه أكثر من كمية من المفرقعات وبعض ماكينات الاصلاح حتى يشق طريقا قصيرا بدلا من الدوران حول الجبال أو تسلق الأكمات والمرتفعات .

ولكن هذا المهندس يحسن صنعا لو أنه استشار دليل القافلة قبل أن يعمد إلى شق طرق محاذ لمجرى نهر ، ذلك لأن هؤلاء الأدلاء هم خير من يعرف مساوىء المجارى المائية فى أفغانستان من طول ما كابدوا شرورها .

لقد تعلمت القوافل بالخبرة الطويلة ان تتجنب الخوانق ذلك انه قد ثبت لديها ان ألد اعداء المسافر هو فيضان نهر عند انحداره إلى خانق . وخير له هنا ان يتسلق جبلا وعرا او يهبط منحدرا شديدا من ان يواجه مثل هذا النهر المختنق .

ولقد عرف رواد القوافل من الخبرة الطويلة على توالى العصور كيف يستخدمون احسن الطرق فوق جبال أفغانستان . والرائد الخبير يعرف كيف يختار طريقه متجنباً الأدغال والفيضانات . أضف إلى ذلك أن الإنسان قد يتنقل راجلا عبر أماكن يستحيل على وسائل النقل الميكانيكى أن ترتادها .

والذى يستخلص من ذلك أنك إذا لزمت الوسائل الميكانيكية فقط فإن كثيراً من مشاهد أفغانستان سوف يظل مغلقاً أمامك .

وخريطة طرق المواصلات القديمة فى أفغانستان تختلف اختلافاً كلياً عن الخريطة الحديثة فمثلا باميان وبجرام لا تظهران على الخرائط الحديثة مع ما لهما من أهمية تاريخية كبيرة فى مواصلات أفغانستان . فمدينة باميان فى الوقت الحاضر تقع على طريق جانبي ولا يطرقها إلا فئة محدودة من السائحين .

أما بجرام فهى ليست على طريق أصلا ومن الصعب جداً — بل من المستحيل أن تصل إليها بالسيارات . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت المدينتان المركزين الرئيسيين للمواصلات عبر جبال هندوكوش منذ فجر التاريخ إلى ما قبل الوقت الحاضر . وكانت كل الطرق تمر بإحداها أو بالأخرى أو بكليهما معاً .

وأنى أنصح المؤرخين بأن يلقوا الخرائط الحديثة وطرق المواصلات الميكانيمكية جانباً وأن يعتمدوا على طرق القوافل . وإذا أردت أن تؤرخ عن أفغانستان عليك بالسير علي قدميك فهذا بداية الحكمة .

٣٢ - منار جكرى

كنت قد أوشكت على مغادرة أفغانستان دون رؤية مئذنة جام ، وهذه شقيقة إلى قطب منار فى دلهى . وقد قدر لكل منهما يوما ما أن تعلو شامخة فوق عاصمة كبرى . لقد كان للأمبراطورية الغورية عاصمتان إحداها فى دلهى فى هندوستان المحتلة والثانية فى جام وهى الموطن الأصلى للغوريين حيث نشأوا فى الوادى الأعلى لنهر هارى رود . ولا تزال دلهى مدينة كبرى قائمة حتى اليوم ، أما جام فلم يبق لها من أثر إلا مئذنتها العظيمة التي تقف شاهداً على ما كان لهذا المكان من عظمة ومجد فى القرن الثانى عشر الميلادى . وفى العصر الأخير للنهضة التيمورية كانت جام مسقط رأس آخر شعراء فارس القدامى وهو جامى الذى دفن فى هيرات .

لقد دعانى البروفسور شلومبرجر رئيس البعثة الأثرية الفرنسية فى أفغانستان لزيارة منارجكرى ، فلبيت الدعوة شاكرا .

ان قاعدة المنار تقع فى أسفل منحدر جبلى يمر به طريق القوافل بين كابل وجلال أباد ، أما عامود المنار فهو مقام فى مكان ظاهر على حافة الجبل . انتقلنا إلى هناك فى سيارة ولما اقتربنا من منار جكرى . ترجلنا وتسلقنا المنحدر حتى بلغنا قاعدة المئذنة وهناك استمتعنا بمشاهدة فن الزخرفة الدقيق على هذه القاعدة وبعد ذلك شرعنا نتسلق عمود المنار نفسه ، وقد استغرق منا هذا العمل أربع ساعات للصعود والنزول .

أن منار جكرى أثر تحيط به الأسوار . وعمود المنار عليه نفس الزخرفة والنقوش التى شاهدناها على القاعدة وكلاهما يدل على أنهما أقيما معاً فى عصر الكوشانيين . ومهما يكن من أمر هذا الشاهد التاريخى فهو مزيج من فن العمارة الأغريقى والفارسي .

فتاج العمود يذكرك برؤوس الأعمدة الفارسية التى كانت شائعة فى فن العمارة فى عصر الأسرة الأخيمينية وترى مثلها فى مدينة برسبوليس (اصطخر) ، ومن ناحية أخرى تبرز أمامك خصائص فن العمارة الأغريقى فى أحزمة الزخارف الثلاثية التى تزين العمود فى أماكن مختلفة وهى المصطبة والأفريز والكورنيش .

وهنا نتساءل . من الذى اقام هذا العمود الضخم وعلى هذا المرتفع المائل ؟ وما سبب إقامته ؟ لقد تكلف مجهوداً بشرياً هائلا وإذن فلا بد وأن يكون قد أقيم تخليداً لذكرى شخص عظيم سواء كان إنساناً أومعبوداً ، وقد تكن إقامته تخليداً لذكرى حادث عظيم تاريخى كائن أو اسطورى .

انك إذا وقفت على حافة الجبل ونظرت إلى منار جكرى وجدت أن القاعدة التى زرناها ليست إلا واحدة ضمن سلسلة طويلة أقيمت على شكل نصف دائرة على سفح الجبل . وبجانبها تشاهد مجموعة من الأديرة أو المعابد التي تجاور سلسلة القواعد . فإذا تلفت يسرة رأيت عموداً آخر قائماً فوق قمة جبل صغير . وفى أسفل المنحدر تشاهد حوشا من الأشجار يعين لك موقع مدينة كابل القديمة وهى الآن مدفونة تحت الأرض ولا تستطيع ان تصل إليها معرفة العالم الاثرى .

فإذا تلفت يمنة الفيتك تواجه من جهة الشمال الغربى قمم نورستان الشامخة التى تغطيها الثلوج . ومن ناحية أخرى تشاهد الحافة الشرقية لمرتفعات أفغانستان الوسط . وهذه المرتفعات تحجب عنك هزارة جات ثم غور التى تحرس منار جام . وفى الوسط ترى ممر سالانج وهو أعلي وأقصى طريقا بين عالمين. بين حوض أمورداريا والسند .

فإذا سرحت ببصرك من قاعدة منار جكرى خيل إليك أن السور الجبلى الأبيض كأنه خط مستقيم .

ياله من منظر جليل ! انى هنا وأنا واقف عند قاعدة منار جكرى اعتقد أن نصف تاريخ العالم القديم يتمثل فى هذه البقعة من الأرض .

ان أصداء التاريخ قد امتصتها تلك القمم الشامخة كما امتصت ثلوج سيبريا حيوان الماموث .

وعندما هبطت درجات قاعدة المنار تلفت حولى فلم أجد أثرا للحياة .

ليست هناك نبتة واحدة ولا قطرة ماء . والصخور قائمة . منتصبة كأنها ظهر حلوف ، ان الحياة هنا تمتنع عن أى كائن حى ، حتى ولو كان عنزة تحيا على اتفه العشب .

ولكن ماذا هناك ؟ انه زوج من الإبل ! بل زوجان ، بل ثلاثة ! يا للغرابة ! إنها قابعة فى مناخها على قائم الصخر — تجتر ناعمة وكأنها ربات خدور على فراش وثير .

ياللعجب ! ولكن ، لا عجب فنحن الآن فى أفغانستان .

ان الطبيعة خشنة قاسية ، ولكن الكائن الحى هنا أشد منها خشونة وصلابة .

---

٣٣ — خط تقسيم المياه

أخيراً وصلت إلى خط تقسيم المياه بين الأنهر المختلفة التى تنبع من الطرف الجنوبى لسلسلة جبال هندوكوش . ولطالما وضعت الخريطة أمامى وقرأت عليها أسماء تلك الأنهار الآسيوية وشاهدت منابعها ، ولكن قراءة الخريطة شيء ومشاهدة الواقع شيء آخر . فكل ما أمامى الآن يختلف اختلافاً كلياً عن تلك الصورة الذهنية التى خلقتها قراءة الخريطة .

كنت واقفاً على سور أحد القلاع الخربة على واجهة جرف صخرى وتحت قدمى كميات كبيرة من الماء المتجمع تدور حركة دائرية عنيفة ثم تنطلق فى سرعة جنونية فوق المنحدر . وكان على يسارى خط تقسيم المياه الذى يغذى هذه المياه المتدفقة . ومن أعلى السور كنت أشرف على مداخل الوديان الأربعة التى تتدافع على أرضها أنهار أربعة تنبع كلها من منطقة واحدة . وكانت ثلاثة من هذه الوديان تؤدى إلى ممرات جبلية ، فوادى غورباند يؤدى إلى ممر شيبار ، ووادى بانجير يؤدى إلى ممر خاداك ، ووادى سالانج يؤدى إلي ممر سالانج ، أما الأقليم الأخضر الداكن الواقع بين أقصي شاطيء نهرى وبين السفح الجنوبى لجبل هندوكوش فهو اقليم كوهستان أى بلاد الجبل ، والقلعة التي كنت على أسوارها منذ قليل هى الطرف الشمالى الأقصى لمدينه كابيشا الأثرية التي تعرف اليوم باسم بجرام .

وعندما كنت أطل على مجرى الماء من أعلى سور القلعة شاهدت طوقاً مشدوداً إلى حصان عائم فتأكدت ان هذا المكان كان موضعاً للعبور منذ فجر التاريخ . وقد كان الماء الجارى يطوف يمنة ويسرة ، وهذا دليل على ان اختيار هذا المكان لإقامة القلعة دليل على أنه مركز استراتيجى هام ، فسور القلعة الذى وقفت عليه يشرف على معبر النهر إشرافاً تاماً . ولو أنك أوقفت علي هذا السور

حفنة من الرماة لما استطاع جيش كامل أن يغامر بعبور مجرى الماء فى هذا المكان وقد شاهدت على بعد من معبر النهر أسراباً من الطيور الكبيرة البيضاء وهى فى أمكنتها كالديدابان يقوم بالحراسة دون ان يعنى عن فى المكان من آدميين . وعلى الرغم من انها كانت على مرمى بندقية فلم تتحرك من أماكنها ، ولا غرابة فى ذلك إذا علمت انها لم تكن طيوراً حقيقية ولكنها دمى وضعت فى أماكنها لإغراء الطيور .

ذلك ان هناك فصلا لهجرة الطيور حيث تهاجر أسراب هائلة من الطيور من الهند إلى هندوكوش عندما يشتد القيظ . ولقد تعلمت هذه الطيور من خبرتها الطويلة ان هذا هو أصلح مكان للمرور فوق الحاجز الجبلى العظيم الارتفاع . وتستطيع هذه الطيور اجتياز الجبال من هذه البقعة طالما كان الجو مواتياً ، ولكن فى بعض السنين يسوء الجو فى الجبال فتهب من فوقها رياح شمالية باردة تسمى بادى بارافان تبعث الرعب فى النفوس بحيث يعجز الانسان والحيوان والطير عن احتمال قسوتها. وهنا تصبح الفرصةمواتية لصيادى الطيور فى أن تنهزم الطيور أمامقسوة الرياح البارد حتى تعود أدراجها محاولة البحث عن مأوى .

وهنا تبصر الدمى المصنوعة على شكل طير فتحط بجوارها وبذلك تصبح هدفا سهلا للصياد . وبعد ان انتهينا من مشاهدة المياه الجارفة والطيور الزائفة اتجهنا نحو بجرام حيث عثرت البعثة الفرنسية على كنوزها الأثرية . وما أن بلغنا المكان حتى وقع بصرى على كوه بهلوان وهو جبل منعزل مطل على النهر . إن هذا الجبل يعتبر قزماً إذا ما قيس بجبال هندوكوش الشاهقة . ولكن عزلته تجعله علماً من معالم الطريق .

يوم وصولى إلى أفغانستان كان هذا الجبل على مرآى منى ولكن لم أستطيع بلوغه ، أما اليوم فأنا على مقربة منه وليس هناك عائق يمنعنى من الوصول إليه خاصة وقد علمت أن الجانب المطل على النهر من هذا الجبل هو شوتوراك المشهور .

لقد أخبرنى الأستاذ كوه زاد أن لفظ شوتوراك معناه « الفصيل » أو الجمل الصغير . وهنا يبرز جانب الجبل حتى كأنه غرس فى مجرى النهر .

فإذا ما أطل الانسان على المياه المتدافقة الصاخبة فى أسفل رأى الأمواج من فوقها وكأنها طبقة من الوبر على ظهير بعير ، ومن هنا جاءت التسمية .

إن هذا المكان فيه مغناطيسية عجيبة تجذب اليه السائح . فعلى جوانب الجبال تجد صفوفاً من المعابد البوذية المهجورة : ومجاميع من قواعد أعمدة المنارات ، وخطوطاً طويلة من الخلوات التي كان يتعبد فيها الرهبان البوذيون .

واشد هذه المعابد القديمة روعة ، ذلك الذى يطلق عليه اسم « شهر زاد الصين » أى الأمراء الصينيين . ذلك أن هذا المعبد اختص باحتجاز أمراء الصين كرهائن لدى امبراطور كوشان فى عاصمته كانيشكا ، ويقال إن الامبراطور كان يكرم هؤلاء النبلاء الأسرى بأن يقيم معهم فى المعبد شهراً كل عام .

إن ما حولنا من مظاهر النهر والحقول وبساتين الفاكهة والجبال لهو منظر ساحر حقاً يأخذ بمجامع القلوب . ولو قدر لى ان أمضى فترة من حياتى فى معتقل فليس أفضل لدى من معتقل شهر زاد الصين .

٣٤ — العودة

فى آخر مرحلة من مراحل جولتنا فى أفغانستان ، دخلنا مدينة كابل مرة ثانية ، وفى أثناء اتجاهنا إلى شرق المدينــة وجهنا لأحد رجال بوليس المرور السؤال التالى :

تانج جارو أو لاتا باند ؟ ان الطريق بين كابل ، وجــلال اباد عن طريق الخانق يبلغ طوله نصف الطريق الجبلى بشرط ألا يـكون نهر كابل فى شدته وعنفه . وقد رد رجــل البوليس على سؤالنا قائلا : تانج جارو ، ولذلك فإننا فى هذه المرة اتبعنا طريق النهر حتى اختفى فى الخانق ، ومن هنا تتبعناه فى طرق متعرجة وفى داخل الأنفاق وعلى المنحدر الجبــلى ، وهنا انفرج النهر وأصبح ضعف حجمه السابق بعد التقائه بنهر بانجير. لقد رأيت نهر بانجيز منذ يومين وهو يجمع مياه نهيرات ثلاثة ويندفع على طول سفح كوه بهلوان فى طريقه إلى نيجارا تاجارو . وهو اليوم يشق طريقه وسط الآثار البوذية ثم يندفــع ملتقياً بنهر كابل ، وبعد ملتقى بانجير بـكابل سرنا حتى وصلنا ساروبى ومنها إلى طور خام . وما أن بلغنا هذه المرحلة حتى تنفست الصعداء كفأر فر من بين مخالب القط .

عند داروتنا يلتقى نهر كابل بنهر سورخاب وهنا أيضاً تجد الطريق القديم بين كابل ، وجلال أباد . ان هذا الطريق قد بطل استعماله بعد أن استطاع المهندس الحديث شق الطرق فى الخوانق والممرات الجبلية ، ولـكن هذا الطريق القديم المهجور ملئ بالآثار . فالزاوية التى عند ملتقى النهرين تحوى عــدداً من القواعد الحجرية البوذية كما أن وادى سورخاب يضم بساتين الأباطرة المغول التى اعتادوا الاستراحة فيها قبل عبور ممر خورد كابل ، لقد كانت نيملا الشهيرة بقواعد المنارات بعيــدة عن الطريق الذى سلـكناه ، ولـكنى توقفت قليلا لزيارة أحد هذه القواعد .

وقد وجدت مرشداً قادنى إلى هذه القاعدة واستطعت بمساعدته أن أتسلقها حتى القمة ، وعلي الرغم من أنى تجشمت صعابا كثيرة فى التسلق إلا أنى وجدت أخيراً ما عوضنى عن تعبي خيراً . لقد كانت جبال سافدكوه تحد الأفق الجنوبى . وسافدكوه معناها الجبل الأبيض وقد أطلق هذا الاسم على جبل سافدكوه نظراً لأن قمته يكسوها الثلج على مدار السنة . فإذا ما اتجهت ببصرك صوب الشمال وجدت أمامك قمم نورستان الشامخة .

كان الصباح التالى آخر عهدى بافغانستان . والواقع أنى غادرت هذا البلد الجميل على مضض ، فقد لقيت من كرم الوفادة ومن المناظر الطبيعية ومن المشاهد التاريخية ما تمنيت معه أن أطيل المقام . ومع ذلك فقد تباطأت قليلا لمشاهدة الآثار البوذية فى حدّا .

ولما كان بينى و بين رفاقى موعدا على الرحيل ظهرا إلى باكستان فقد اتجهنا شرقاً فى طريق مرصوف .

كان على يسارنا نهر كابل وقد انحدر من السهل إلى خانق جبلى جديد وهو الخانق الذى يختفى النهر عند أوله فى وارسك ليبرز مرة ثانية فى الجانب الباكستانى . وعلى الطرف الغربى الأقصي للحافة الجبلية التى يوجد فى أسفلها ممر خيبر شاهدنا أحد حصون باكستان عبر الحدود . وهنا استأذن مرافقى الأفغانى فى العودة .

ان سلسلة طورخام تفصل عالمين مختلفين كما لو كان بينهما البحر المحيط .

ذكرنى الانتقال من أفغانستان إلى باكستان بحادث انتقال كنجليك من النمسا إلى تركيا ولكن كان يجب أن يكون هناك فارق بين الحالتين ، فالانتقال من النمسا إلى تركيا فى القرن التاسع عشر كانت تحوطه قيود شديدة فرضتها ظروف سياسية واجتماعية ودينية تجعلهما مختلفتان عن بعضهما كل الاختلاف ولكنا اليوم امام بلدين إسلاميين وعلى جانبي الحدود تسمع لغة الباشتو ورغم ذلك فإن القيود المفروضة على الحدود بين أفغانستان وباكستان أشد من تلك التى كانت معروضة على الانتقال بين النمسا وتركيا فى القرن التاسع عشر .

ولعلها السياسة مصدر كل شر .

٣٥ ـ سعير هو لبلد الزى :

لقد كان التاريخ بالنسبة لأفغانستان فيضا غامرا وقحطا مدمرا . فطالما كانت هذه البلاد فريسة لنكبات تاريخية لاتقل فى قوتها التدميرية عن الفيضانات السنوية التى تكتسح كل ماتصادفه .

لقد أتاحت جبال أفغانستان للشعب الأفغانى الفرصة للمحافظة على استقلاله أو على الأقل استعادته بعد أن ضاع لفترة ما . ان جبال هندوكوش عملاق هائل ولكن فى بعض المواضع لا تزيد فى ارتفاعها عن نصف ارتفاع الجبال التى تعزل جلجيت ، فهذه من أعلى جبال العالم .

وبفضل هذه الجبال الشاهقة ظلت جلجيت بلا تاريخ حتى عهد قريب .

أن تاريخ جلجليت يكاد يكون صفحة بيضاء ويبدو أن أهلها كانوا فى الأصل بوذيين قبل أن يعتنقوا الاسلام فجارتها الشرقية لا داخ لا تزال بوذية حتى اليوم ، كما أن جارتها الغربية افغانستان ظلت بوذية حتى القرن التاسع الميلادى . ولكن متى تحولت جلجليت إلى البوذية ؟ ومتى تحولت من البوذية إلى الإسلام ؟ ليس لدينا سند تاريخى ليثبت هذين الحدثين العظيمين ، بل لقد ظل تاريخ هذا البلد خالياً من الحوادث الهامة حتى عام ١٩٤٧ ، عندما تفككت امبراطورية الهند البريطانية . ومنذ ذلك التاريخ اكتسح جلجيت تيار التاريخ الجارف .

فى عام ١٩٤٧ ضمت حكومة الهند البريطانيـة إقليم جلجيتان ولاية كشمير ويبدو ان هذا الضم جاء طبقاً للأوضاع الجغرافية السائدة فى ذلك الحين .

ذلك ان جلجيت لم يكن لديها من وسيلة للاتصال بالعالم الخارجى إلا عن الطريق الذى يربطها بمدينة سريخار فى كشمير وقد بدىء فعلا فى وضع قرار

حكومة الهند موضع التنفيذ فتوجه مندوبون من قبل حاكم كشمير إلى جلجليت وبد ـ يطرون عليها . ولكن حكم كشمير لاقليم جلجيت كان قصير الأجل .

وأهالى جلجيت مسلمون وحاكم كشمير هندوسى ، وقد كان الجلجيتيون اكثر توفيقا من الكشميريين فى التخلص من الحكم الهندوس وقد قامت جلجيت عن بكرة أبيها بثورة ضد هذا الحكم الهندوسى محتمية بجبالها ، ولكنها كانت ثورة بيضاء لم ترق فيها نقطة من الدماء . فطردت حكامها من قبل حاكم كشمير وارتمت فى أحضان باكستان . وهنا فقد اكتشف الجلجيتيون لأول مرة أنهم يعيشون فى عصر الطيران . واشتركت جلجيت فى المعركة القائمة بين باكستان والهند من أجل كشمير ولما عجزت القوات الهندية عن الاستيلاء علي جلجيت برا لمناعة جبالها ألقت عليها القنابل من الجو ، وظل الطيران الهندى يضرب جلجيت بالقنابل من الجو طوال ستة شهور حتى أعلن وقف إطلاق النار بين الجانبين الباكستانى والهندى .

غير أن عودة السلام لم يؤد إلى اختفاء الطيران من جو جلجيت فقد حلت وحدات من السلاح الجوى الباكستانى بأرض جلجيت وبقيت بها حتى اليوم .

وتعتمد جلجيت على ماينقل إليها جوا من موارد غذائيـة وادوات اخرى مثل برلين الغربية . ولقد شقت حكومة باكستان بعد أن أغلق الطريق الذى كان يربط جلجيت بسرنجار سابقا وهو الذى بقى فى ايدى الهنـد حتى اليوم . ولكن هذا الطريق مغلق فى أغلب شهور السنة لرداءة الطقس وتكاثف طبقات الثلوج ، ويحاول الباكستانيون اليوم شق طريق آخر فى الخانق الجبـلى الذى يجرى فيه نهر السند الأعلى . وهذا الطريق عندما يتم انشاؤه سوف يظل مفتوحا طوال أيام السنة وبذلك تتصل جلجيت بالعالم الخارجى اتصالا دائما كل أيام السنة .

والطيران فى روال بندى (العاصمة الجديدة لباكستان) إلى جلجيت لا يستغرق أكثر من ساعة ولكنها ساعة تقطع كل صلة بين راكب الطائرة وبين سكان الأرض وما أن تمس عجلات الطائرة أرض المطار حتى تفيق من ذهولك وكأنك بعثت إلى هذا العالم من جديد ..

٣٦ — طريق السيارات الى سقف الدنيا

عندما تعبر الكوبرى المعلق فى جلجيت وتسير فى وادى هونزا فأنت الآن فى طريقك إلى البامير وسنكيانج ، ولكن السيارة لا تحملك كل الطريق فبعد قليل يتحول طريق السيارات إلى طريق لدواب الحمل ومن ثم إلى طريق للمشاة فقط . لقد سرنا فى هذا الطريق مسافة أربعين ميلا حتى قربنا من راكايوش . وقمة راكايوش يبلغ ارتفاعها ٢٥,٥٥٠ قدماً وهى جميلة التركيب وكأنها جسم كائن حى . أما نهرهونزا فهو كبقية الأنهار التى تسير فى الخوانق فهو يقفزمن منحدر إلى منحدر ويدور ماؤه دوراناً عنيفاً حول كل صخرة يمر بها ولا يترك مجالا لطريق بجانبه ، والوسيلة الوحيدة لإيجاد طريق هنا هو شقة فى الصخر . كذلك يمكن ان يشق فى الصخر طريق صالح لسيارات الجيب . ومثل هذا السفر غاية فى الخطورة وخاصة عند مروره بجانب هاوية سحيقة .

وإذا ما التقت سيارة الجيب باحدى دواب الحمل كحمار مثلا قادم من الجهة المقابلة فهنا مشكلة كبرى . وإذا كان الحمار يحمل ثقلا فهذا عين الخطر . ذلك أن الحمار إذا هاج لمنظر السيارة وأتى حركة غير متوازية فقد يطيح بالعربة الجيب ومن فيها إلى هاوية سحيقة .

ولكن ما العمل إذا تقابلت سيارتان وجهاً لوجه ؟ .

لقد قاسينا مثل هذه التجربة الخطيرة . فبينما كنا نجتاز إحدى القمم إذا بسيارة جيب قادمة من الجهة المقابلة . وهنا أنقذ سائق سيارتنا الموقف ، إذ أنه زاد من سرعة السيارة حتى بلغت بنامكانا متسعاً إلى حد ما قبل أن تبلغه السيارة القادمة من المقابلة ، وهناك وقفنا حتى مرت السيارة الأخرى من جانبنا ولو انحرفت عند مروها قيد شعرة لألقت بنا فى الهاوية .

لقد أطلت فى وصف طريق سيارات الجيب فوق وادى هونزا — بالقرب من قمه را كابوش ولكن مهما طال الوصف فلن أستطيع أن أبين لك الأخطاء التى تكتنف السفر عن هذا الطريق .

ولكن ما رأيك فى طريق دواب الحمل فوق الصخور ؟ لقد نظرت فى اتجاه القمم العالية فشاهدت ما يشبه خدوشا فى السفح ، ولما سألت عما هى هذه الخدوش، قيل لى أنها طريق البغال والحمير فوق الجبل تصور مسيرة خمسين يوما بين سريخار وكشفر وأنت معلق على حافة الهاوية تتوقع الموت فى كل لحظة .

٣٧ - عشرة أميال إلى تشترال :

فى ٢٨ مايو قررت التوجه إلى تشترال ولكنا علمنا بسقوط كميات كبيرة من الجليد فوق ممر لوارى وهو طريقنا الوحيد إلى تشترال من داخل باكستان . ولكن من يعلم إلى متى يستمر سقوط الجليد فى هذا العام الذى يسوده الطقس الردىء ؟ لقد أبلغنى أحد رجال السلاح الحربى فى بشاور أن الممر سوف يظل معطلا لفترة قد تمتد عدة أسابيع كاملة .

ولكن مسجل جامعة بشاور أبلغنى بدوره أن الطريق جيد فى الوقت الحاضر وأنه قد أعد أوراق الامتحان لإرسالها إلى تشترال . وتبين لى بعدذلك أن تقدير المسجل كان خاطئاً . ذلك أنه سوف يرسل أوراق الامتحان مع حمال والحمالون هناك مهرة يتنقلون على هـذا الطريق فى الجو الطيب والجو الردىء . ولكن فى بعض الأحيان يسوء الجو حتى ليعجز هؤلاء الحمـالون أنفسهم عن السير فى الطريق حيث يكون مغطى بطبقة من الثلج لمسافة قد تمتـد إلى خمسة عشر ميلا . وتتدفق السيول الجارفة فوق الطرق المغطاة بالثلج ولا يلبث ماء السيل أن يتجمد من شدة البرد — وإذا كان من سوء حظك أن واجهتك عاصفة ثلجية فأنت هالك لا محالة . ولقد لقى حوالى سبعين شخصاً حتفهم على هـذا الطريق فى العام المـاضى .

وبعد أن تلقينا كل هذه المعلومات عدلنا عن زيارة تشترال فى هـذا الفصل من السـنة .

٣٨ – دير وسوات

هناك عناصر هامة تعتبر عاملا مشتركا بين ولايتى دير وسوات فالاثنتان ضمن خمس من الولايات ذات الاستقلال الذاتى الباقية داخل حدود باكستان . أما الثلاث الأخرى فهى تشترال وناجيار وهونزا . وباقى الولايات اندمجت فى باكستان الغربية وأصبحت جزء منها . فتلا بها واليوم وخانات (مارات) بلدخستان لم يعد لها وجود على الخريطة الإدارية لباكستان . ولكنك إذا اطلعت على الجزء الشمالى من هذه الخريطة تجد دير وسوات لا تزال قائمة بل أنهما مرتبطتان بعضهما ارتباطاً وثيقاً . وسكان هاتين الولايتين من الياثان من قبيلة يوسف زاى . ولن تستطيع أن تخضع الياثانيين لحكم خارجى إلا إذا أوتيت حنكة سياسية تفوق كل حد . ونظام الحكم فى كل من الولايتين هو النظام القبلى الذى يسلم زمام الإمن لشخص واحد ولكن فيما عدا العنصرية الياثانية ونظام الحكم فإن الولايتين تختلفان عن بعضهما اختلافا كاملا فى كل شيء آخر . فولايةدير لا يقل عمرها عن ثلاثمائة عام . فقد كانت موجودة عندما كانت أمبراطورية المغولى فى أوج عظمتها ومع ذلك تخضع لسلطان المغولى مطلقاً . أما ولاية سوات فقد أنشئت منذ عهد قريب . وقد كان ذلك بين عامى ١٩١٧ و١٩٢٦ .

ولا يزال مؤسسها على قيد الحياة وإن كان قد تنازل عن الحكم منذ سنوات لصالح ابنه وذلك لكى يكرس باقى حياته للعبادة . وكان تأسيس ولاية سوات تحديا لولاية دير التى ادعت أن لها حق السيادة على وادى سوات . وعلى الرغم من أن حكومة الهند البريطانية ومن بعدها حكومة باكستان قد اعترفتا بأن ولاية سوات هى من ضمن الورثة الشرعيين للحكم البريطانى فى الهند فإن نواب ولاية دير (حاكم أو أمير ولاية دير) لم يعترف بحكومة سوات مطلقاً ولا يزال يلقب نفسه « نواب دير دسوات » وتسير حكومة سوات على مذهب الأحرار

فى تنفق كل ما تستطيـــع إنفاقه على إنشاء المستشفيات وشق الطرق وتأسيس المدارس . أما ولاية دير فهى تتبع سياسة المحافظين وقد أنشأت حديثا مستشفى واحد فى العاصمة ، أما الطريق الذى هو الشريان الحيوى الوحيد فى ولاية دير فإن حكومة باكستان هى التى تشرف عليه . والسيارات العامة التي تستخدم على هذا الطريق الرئيسي الذى شقته حكومة الهند البريطانية وتقوم علي حياته حكومة باكستان حالياً ملك للحكومة وهذا بخلاف ماهو حاصل فى ولاية سوات فان وسائل النقل وما عــداها من الأشغال العامــة كلها ملك للأفراد .

أنك فى ولاية سوات تستطيع أن تمسك بسماعة التليفون وتتصل بأى شخص سواءا كان فى باكستان أو فى اى بلد خارجي . وولاية دير لها شبكتها التليفونية الخاصة بها ولكنها فى عزلة عن كل مواصلات تليفونية خارجية ولو أمسكت بسماعة التليفون وطلبت الاتصال بشخص خارج حدود الولاية فلا بد وأن يعرف الحاكم سبب اتصالك بشخص خارج حدود البلاد . وإذا تمت الموافقــة أخيراً على هــذا الاتصال التليفونى فلا بد من مواصلة تليفونية أخرى تربطك بشبكة تليفونات باكستان . والكلمة الأخيرة فى أوجه الاختلاف بين ولايتى دير وسوات هو أن ولاية دير فقيرة أما ولاية سوات فغنية .

فالأرض الخصبة الواقعة فى وادى سوات ليس لها مثيــل فى حوض نهر بانجكورا بأجمعه . فى هذا الوادى الشهير بخصبه يحصد الأهالى غلتين فى العام الواحد إحداهما غلة القمح فى يونيو والثانيــة غلة الأرز فى اكتوبر . ويوجد فى ولاية دير حقول للأرز أيضاً ولكنها قليلة جــدا ومساحتها صغيرة . وترجع ثورة ولاية سوات إلى أنها تستغل مواردها الطبيعية ، فالأخشاب التى تحصل عليها من كوهستان لا تقل أهمية كمورد من موارد الثروة عن المحاصيل الزراعية التى ينتجها وادى سوات ، وولاية دير هى الأخرى لها منطقة جبلية (كوهستان) غنية بالأخشاب ولكنها لم تستثمر حتى اليوم ومن هنا يمكن القول بأن سوات أقدر على الحياة من دير فضلا عن أنها أعظم منها ثروة . لقــد سررنا هنا كثيراً من المزايا التى تختص بها ولاية سوات دون جارتها دير ، فــاذا يمكن أن نقول عن دير ؟ .

ان شخصية حاكم دير الحالي (لقد تمت كتابة هذا المؤلف قبل تغير حاكم دير في أكتوبر ١٩٦٠) عنصر هام لا يمكن إغفاله .

فهو يحكم حكماً مطلقاً ويوقع بخصومه ومعارضية أشد أنواع الإنتقام وهو حريص كل الحرص ويراقب كل شيء وكل حركة لاتخفى علية صغيرة ولا كبيرة في بلاده . وهو ليس في حاجة إلى منح إصدار أمر أو تصريح فتكفي منه إشارة أو إيماء ، بسيطه ليدرك أتباعه مايريد وهناك الطاعة المطلقة والتنفيذ العاجل ،

وهمه الأول والأخير هوان تطاع أوامره أطاعة مطلقة . أنة لا يفكر الا في فرض سلطته ونفوذه وهو يسير إلى هدفه في وضوح وجلاء فلا التواء ولا استرضاء . أنه لا يرضي عن مستحدثات العصر الحاضر ويرى أنها غرور في غرور . وإذا حللت نفسيته وجدتها مزيجاً من الإستهانة والشك وعدم الثقة في الناس ، بل وفي الحياة خارج دائرة الجبال التي يعيش فيها هو وشعبه أنه يرى في هذا العالم الخارجي الخطر كل الخطر وقد يفضل جاره وإلى سوات التضحية بالتجديد في سبيل الإحتفاظ بالسلطة لو اتيح له ذلك . ولكنه يدرك تمام الإدراك أن هذه مشكلة معقده يجب عليه أن يتجنبها . وهو هنا يستعيد في ذاكرته ماحدث لأحد ملاك أوربا المستنيرين في القرن الثامن عشر . فقد كان في أوروبا قبل عصر الثورات كثير من الأمارات المستقلة الصغيرة التي في حجم سوات وكانت تحكم حكما اتوقراطيا لصالح الشعب ولكن الحكومات الحديثة ابتلعت هذه الأمارات وادمجتها في حكومات كبرى وبذلك ذهبت شخية الحاكم وشعبه الصغير .

كذلك إذا انتقلت إلى « أمين سر الدولة » تجده هو الآخر يفكر بعقلية سياسي أوربي في القرن الثامن عشر . فمنذ سنوات قبل أن يكون حاكم الولاية قد أتم إنشاء دولته الصغيرة ، وفد أمين سر الدولة الحالي على البلاد بناء على دعوة الحاكم ليشتغل مؤدباً للوالي الحالي لفترة ثلاثة أشهر . وكان هذا الامين أجنبيا عن البلاد فهو من أبناء البنجاب من بلدة جوجرانوالا وقد قبل هذا البنجابي منصبه كمؤدب لعلمه أن قضاء ثلاثة أشهر بين الباثانيين من قبيلة يوسف زاد خبرة جديدة شيقة . ولكن تبين فيما بعد أنها كانت طويلة قاسية ، فبدلا من أن يقيم بين الباثان ثلاثة أشهر أقام بينهم بقية حياته دون وسيلة للخلاص . فعندما انتهت الشهور الثلاثه طلب منه الحاكم أن يبقى بجانبه ليكون مستشاره الخاص .

لم تكن الولاية فى ذلك الوقت تبشر بمستقبل زاهر ولكن البنجابى سلم بالأمر الواقع وربط مصيره بمصير هذا السياسى الباثانى . ومنذ ذلك اليوم وهو يعمل بصفة دائمة فى سوات : فقام أولا بخدمة الحاكم الوالى مؤسس حكومة سوات وثانيا بخدمة الوالى الحالى . ومنصبه يقتضى بقاؤة فى سوات كل الوقت ، فالفرصة الوحيدة التى استطاع فيها أن يغادر البلد لم تزد عن ١٤ يوما خلال حياته الطويلة فى سوات . وكان اقصي رحلة قام بها إلى باكستان الغربية . وهو وإن ظل حبيس سوات طول حياته فقد كانت له يد كبرى فى إدخال المستحدثات العصرية إلى البلاد . واستطاع بجده ومثابرته أن ينشئ حكومة منظمة على انقاض الفوضى الباثانية .

ولكن شخصية مؤسس سوات الحديثة تغطى على كل شخصية أخرى فى إقليمى دير وسوات . أن هذا الرجل يشبه جاره نواب (أمير) دير فى أنه ينحدر من أسرة دينية ، فهو حفيد اخوند (الزعيم الدينى) إقليم سوات . ومن المشاهد أن طائفة الاسماعيلية بين الباثانيين لها أوضاعها الخاصة التى تتيح لحملة الألقاب الوراثية من رجال الدين أن يستعيضوا عن المقدرة العسكرية بمركزهم الدينى فى الحصول على مركز سياسي . ذلك أن القوى العسكرية المتعادلة فى هذه المجتمعات قد تجمع كلها على اختيار أحد رجال الدين ليكون حكما بينها فيما يجد من خلاف . واذا ما احتدم الأمر بحيث أصبح المخرج الوحيد من خلاف مستحكم هو اختيار طرف ثالث لتولى الزعامة فهنا فرصة رجل الدين الذى اختاره الطرفان العسكريان حكما بينهما . فهو فى نظر الطرفين أقل خطرا من تولى أحدهما السلطة .

هذه هى الطريقة التى استطاع بها منشىء حكومة سوات أن يصل إلى منصب الحكم . وهذه هى نفس الطريقة التى استطاع بها أحمد شاه عبدلى منشىء الامبراطورية الباشتونية أن يصل إلي الحكم قبل ذلك بقرن ونصف .

أن الدعوة التى وجهت لحفيد الأخوند (الزعيم الدينى) هى تقليد تاريخى باثانى . وهى أمر لا غرابة فيه . ولكن وجه الغرابة هو كيف ورد على خاطر

هذا الرجل الذى نشأ فى مجتمع دمغته التقاليد بالفوضى أن يستفيد من تلك السلطة الضئيلة التى منحت له ويؤسس ملكا له ولذريته من بعده ؟ وكيف عز له أن يدرك وجود ما يسمى بالحكومات العصرية ؟ وكيف تحقق لديه أخيراً أن تاريخ العالم بلغ مرحلة اصبح معها قيام حكومة عصرية أمرا ضروريا فى حياة الباختون ؟ أن كل ما كان يتطلبه منه أهل عشيرته من أولئك الباثانيين الصعبي المراس الأقوياء الشكيمة هو أن يجعل منهم وحدة عسكرية وسياسية تستطيع الوقوف أمام عدوان نواب (أمير) دير .

ولكن مؤسس حكومة سوات كان يتطلع الى ما وراء ذلك . ولم يقتصر الأمر أنه ألقى نظرة على المستقبل أبعد من تلك التى ارتآها أهل عشيرته ولكنه أعد العدة واتخذ الخطوات المتعاقبة اللازمة لتحقيق هدفه دون أن يثير ريبة أهل العشيرة التى كان يسعى إلي اتخاذهم رعايا له. أن الفكرة كلها تبلورت فى رأس رجل واحد فقط ولم يكن لهذا الرجل من يثق به غير أمين سر الدولة البنجانى الذى وقد على البلاد أخير ليكون مؤدباً لابنه .

أن تكوين الفكرة وأعداد الخطة اللازمة لتنفيذها من الأمور التى تحتاج إلى عبقرية سياسية خاصة . ولقد تجاسرت فسألت حاكم سوات السابق كيف استطاع أن يحقق هدفه وكان رده المقتضب الكبير الدلالة كلمة واحدة هى ، الصبر ! .

أن هذا الحاكم لم يقم دعائم حكومة عصرية وسط الفوضي السياسية السائدة فقط ولكنه حقق ما هو أعظم من ذلك بكثير . ولما ادى مهمته خير آداء وحقق أهدافه تنازل عن الملك وكأنه فى هذا يشبه الأمبراطور الروماني وقلد يانوس على الرغم من أنه لم يقرأ عنه ولم يسمع . به . ولما خلا باله من مشاغل الحكم عكف على مهمته وهى رعاية الشعائر الدينية . وكان أول عمل قام به فى هذا السبيل هو صوم رمضان طوال العام بأكمله. وثانيها العكوف على تلاوة القرآن. لقد نصحه الأطباء أخيراً بأن يقلل من الصيام ، أما تلاوة القرآن فلا يزال مثابراً عليها .

ترى ما الذى يخاطره أثناء تلاوة القرآن ؟ لقد علمنا أن الصبر كان سلاحه الماضى فى بناء دلته الصغيرة . ولكن هذا الصبر اقترن بالقوة وعدم المبالاة . إذا ما أراد أن يزيل المعارضين من طريقة حتى لا يكون فى هذا الطريق من يهدد بنكسه . وربما أنه ارتكب كثيراً من الخطايا أثناء تعبيد الطريق لإقامة حكومته الجديدة .

فهل هو الآن فى عزلته يكفر عن تلك الخطايا التى ارتكبها فيا مضى والتى تبين له وهو فى هذا العكوف أنها تتعارض مع تعاليم الإسلام ، ولكن أى نوع من الخطايا ارتكب ؟ أغلب الظن أنها خطيئة قتل النفس ، وإنه أزهق أرواح عدد كبير من الياثانيين فى سبيل تحقيق هدفه .

ولا شك أن إقامة حكومة سوات الجديدة قد بعثت السيادة والخير فى جميع أنحاء ملكه الصغير ، كما بعثت السكينة والهدوء فى نفوس أولئك الياثان اليوسف زاى الذين أصبحوا رعاياه ، فلقد أنقذهم من تلك الفوضي التى تمتد جذورها عميقة فى سجل التاريخ البعيد . وهيأ لهم الرخاء والاستقرار والأخذ بأسباب الحياة العصرية التى تتلاطم أمواجها علي جوانب الجبل وأسوار الوادى الخصيب .

أما ما كان فى حياة هذا السياسي العظيم من خير وشر فانا نترك تقديره إلى خالقه . ولعل الله يغفر له ماتقدم من ذنوبه وماتأخر وهو شيخ مسن يشغل البقية الباقية من حياته بتلاوة القرآن فى خلوته .

٣٩ — الأرز والجليد

إذا لم يوجد الجليد فلن يوجد الأرز . أن حقول الأرز فى وادى حوارم تروى من الثلوج الدائبه السائلة من سافدكوه (الجبل الأبيض) لقد رأيت قمة هذا الجبل منذ بضعة أيام وهى بيضاء من كثرة ما تراكم عليها من الثلج كنت فى ذلك الوقت قادما من كابل إلى بشاور عن طريق جلال أباد . والودى عند شال جدب مقبض للنفس ولكن ما أن توغل فيه حتى تستشعر منه الطبيعة اللينة والعطف. وهنا يستخدم الانسان مهارته وجهوده فى تسخير هذه الطبيعة ذلك أن الإنسان يقسم سفوح المرتفات إلى (مصاطب) لزراعة الأرز والذرة والقمح ويذكرني نظام المصاطب هنا بما فيه من دقة وجمال بما شهدته فى بالى ، ولكن عناية أهالى باختنون بالزراعة أمر يثير كل إعجاب. فشعب بالي مسالم وتستشعر روح السلام هذه حتى فى الحقول وما يحيط بها من مناظر طبيعية ، أما البختينيون فقد كانوا أهل حرب منذ القدم ولطالما اشتهر عنهم إنفاقهم المال بسخاء فى شراء الأسلحة والدخول فى معارك دموية أخذا بالثأر . ولكن هذه المصاطب التى هيأوها للزراعة على سفوح الجبال فى وادى كوارم تظهر جانبا آخر من جوانب طبيعتهم — ذلك هو الجانب المسالم الإنشائى الذى لعبت الحكومة الباكستانية دوراً كبيراً ماهراً فى إثارته .

لقد قدمت على بارا شينار فى آخر يوم من أيام العرض الزراعى السنوى قد يذكرك منظر العرض بأنك فى ضواحى مدينة صغيرة من المدن الانجليزية القائمة فى إقليم البحيرات وذلك باستثناء واحد فقط مهوان جبل سافدكوه الذى يشرف على الوادى اعلى بكثير من الجبال الانجليزية المحيطة بإقليم البحيرات كان المتسابقون على ظهور الخيل والحمير على جانب كبير من الحماسة والفتوة ، كما كانت وجوه الفائزين تطفح بشراً ولطفاً وهم يستعرضون مطاياهم اما المتفرجين .

وبجانب ذلك كان العارضون يقدمون لجمهور النظارة خير ما انتجوا من جمال وغنم ومعز ، وخاصة الماعز البينجانى المشهور الضخم الجسم . أنه عمل عظيم ذلك الذى قامت به الحكومة الباكستانية انه متنفس لنزعة الحرب التى تملك علي الياثاني نفسه ومشاعره . حقاً لقد كانت فكرة انشاء هذا المعرض قطعة فريدة من فن الحكنة السياسية . فقد حولت حب القتال إلى مناقشة فى الخير والإنتاج . ولعل أثر مثل هذا الوعى السياسى يمتد فيشمل كل جزء من أجزاء العالم .

أن الحكومة الباكستانية تحاول جاهدة أن تحول ما فى ذهن اليابثاني من حب المقاتلة والأخذ بالثأر إلى كفاح من أجل تحسين مستوى إنتاجه الزراعى وهذا هو ما يعبر عنه علماء النفس بعملية « الاستعلاء » أو التسامى بالنزعات الإنسانية السيئة ، وتحويها إلى نزعات خيرة .

ان الباثانيين الأرشليمون كيف ينتجون سلالات أحسن من الأرز والتفاح وهم يتعلمون تقدير أهمية المخصبات الزراعية ، والحكومة فى هذا السبيل توزع عليهم المخصبات بأثمان زهيدة . وهم يتعلمون كيف ينقلون الماء إلي أرض جدباء أصبحت بفضل الماء مزارع خضراء يانعة وهكذا تجد أن نظرة القبائل إلى الحياة تتغير تغيراً وإن كان تدريجياً إلا أنه يسير قدما إلي غايته .

بودى لو أن الثأرات بين الأمم يخمد أوارها كما يخمد أوار الثارات بين القبائل والعسائر !

أن سافدكوه يتلألأ فى ضوء الشمس ومن تحته بساط ذهبي من حقول القمح . أن القمح فى أعلى الوادى لا يزال قائما يتموج مع هبات النسيم أما فى أسفله فقد تم حصادها ووضعها فى الأجران .

وهناك فى جانب آخر مزارع الأرز وقد غطاها الماء . أنها تلمع فى ضوء الشمس كمرآة فضية صافية .

وفى وادى كوارم تآخى الإنسان والطبيعة فصنعا عالماً جميلا. أن كل ماحولنا هنا يفيض خيراً وبركة ـ لولا تلك الخصوبة العابسة المتجهمة التى تبعث فى النفس انقباضاً وكآبة . أنها شاهد غليظ القلب علي ذلك الجانب المظلم من الطبيعة الإنسانية .

٤٠ — رازمك وما بعدها

لقد شاهدت اليوم شيئاً يتمنى العالم الأثرى لو أنفق ثروة فى سبيل مشاهدته . لقد شاهدت السور الرومانى ، لا بحام ١٩٦٠ ، ولكن كما كان فى القرن الخامس الميلادى ، وبعد إن جلا عنه الرومان بثلاثة عشر عاماً فقط .

تصور نفسك مواطنا فى الأمبراطورية الرومانية عام ٤٢٥ ميلادية ، وتصور كذلك أنت الشاعر الأفريقى سينيسيوس القوريناثى ، أو إنك المؤرخ الأغريقى بريسكوس الذى أرسله الأمبراطور بتودوسيوس سفيراً له فى بلاط أتيللا . أكمل الصورة الذهنية بجولة تقوم بها فى أنحاء الأمبراطورية ، وخاصة فى تلك البقاع التى تخلت عنها الأمبراطورية وأنت على قيـد الحياة . لقد ألقيت عصا الترحال فى اليثائولا (جزز شتلند وكان يظن الرومان أنها أخرى الدنيا من جهة الشمال) .

ان الحكومة الرومانية فى بريطانيا لا تزال مسيطرة على طرفى سورهادريان (سور هادريان هو سلسلة الخصومة التى أقامها الأمبراطور الرومانى فى هادريان لصد غارات البرابرة) ، ولكنها جلت عن القسم الأوسط من هذا السور وسلمته إلى فرق من الحرس الأهلى — ليقوموا بحماية الحدود الأمبراطورية .

بعد أن تستحضر هذه الصورة الذهبية تخيل أن كل ذلك حدث منذ ثلاث عشر عاماً فقط ، أى أن الحصون الرومانية وثكنات الحرس الأهلى لا تزال قائمـة كما هى ، وكل ما هنالك أن جانباً من السور قد انهار هنا ، أو أن سقفاً سقط هناك أو ان بعض النوافذ والبوابات قد تحطمت .

لقد انتقلت اليوم ١٥ يونيو ١٩٦٠ من حضرة ميران شاه إلى رزاماك وعدت مرة ثانية بطريق رازماك الشهير. أن باكستان لا تزال تملك فى حوزتها حصن ميران شاه الذى بناه الأنجليز فى شمال شرق رازماك . وفى جنوب غرب رازماك

لا تزال تملك حصن وانا الذى بناه الانجليز أيضاً ، ولكن فى عام ١٩٤٧ عندما أعلن الاستقلال وبدأ التقسيم كان من أول الأعمال التى قامت بها حكومة باكستان الناشئة إخلاء سلسلة الحصون التى أقامها الجيش البريطانى الممـدى على امتداد المرتفعات ، وهى دامدل ودوسالى وجورد أى ورازانى ورازمك . وفى طريقنا إلى زارماك مررنا بخرائب هذه الحصون جميعها تصور أن الدرشوت البريطانية قد انتقلت من جزيرتنا إلى باكستان ولكنها لا تزال تحتفظ بطابعها البرطاني لأنها تقوم على هضبة ارتفاعها سبعة آلاف قدم تحملها سلاسل جبليـة ارتفاعها عشرة آلاف قدم . وتصور أيضاً ان الدرشوت البريطانية هذه قد دمرت وأصبحت قاعا صفصفاً ، أن الفناء لم يدب إليها دبيباً كاملا لأن بناءها متـين . إن الكنيسة والسينما والسوق والورش وثكنات الجند كلها فى حالة جيدة .

لقد كانت بريطانيا قبل الجلاء عن شبه القارة الهنـدية الباكستانية تحتفظ بقوى كبيرة فى رازماك وتقل هذه القوة إلي مكان منعزل قصى مثل رازماك وتزويدها بالمؤن والذخائر . كان يكلف بريطانيا نفقات باهظة وخاصة انها تقع فى بلاد معادية وهى بذلك كأنها فى حالة طوارئ دائمة . ولما اعلن الاستقلال وما اقترن به من تقسيم شبه القارة إلي الهند وباكستان وبدات الحرب فى كشمير بين الهند وباكستان وجدت باكستان نفسها عاجزة عن الاحتفاظ بهذه السلسلة الطويلة من الحصون والقلاع بالطريقة التى كانت بريطانيا تحتفظ بها والتى كانت تكلفها نفقات باهظة . وقد واجهت هـذه المشكلة بحل معقول وهو إخلاء الحصون البعيـدة والمراكز العسكرية الأمامية ولكن الضرورات المالية والالتزامات العسكرية التى فرضت على باكستان بسبب وجود خط حدود طويل بينها وبين الهند لم يكونا السبب الوحيـد فى اخلاء باكستان لبعض خطوط التحصينات الواقعة على حدودها الشمالية الغربية . ان هذان يعتبران من الوسائل السلبية ولكن هناك سبب إيجابي لهذا الانسحاب ، ذلك ان باكستان بدات توجه سياستها وجهة جديدة انها لم تعد تتناول مشكلة الحدود على أنها مشكلة عسكرية فى المقام الأول ونتيجة لذلك فإن القبائل الضاربة فى هذه المناطق والتى كانت تقف من القوات البريطانية موقف التحدى لم تعد تتبع هذا المسلك القديم .

وبدلا من أن تظل مدمرة للمدنية انقلبت إلى نصير لهذه المدنية ومعتنق لها .

هكذا نجد باكستان بأتباع هـذه السياسة الإنشائية قد استفادت فائدة مزدوجة ، ما كانت حكومة الهند البريطانية لتحصل عليها . ولكن كيف عم ذلك ؟ فى عام ١٩٤٧ عندماتسلمت حكومة باكستان الناشئة مسئولية حماية الحدود الشمالية الغربية ، كانت القبائل الضاربة فى هذه المناطق على اتصال بالمدنيـة لمدة تبلغ حوالى مائة عام . حقيقة أن هذا الاتصال كان يتخذ قالباً عدوانياً ولكنه على أى حال لم يخل من فائدة ، ولذلك فإن عيون هذه القبائل فى عام ١٩٤٧ كانت قد بدأت تتفتح على العالم الخارجي بما فيه من تقـدم وعمران ، وأفـكار جديدة . وكان هذا الاتجاه الفكرى الجديد لقبائل الحدود فرجة ضيقة ولكنها هيأت للسلطات الباكستانية طريقاً للتسلل أخذت توسعه بالتدريج . ولاننسى أن الباكستانيين بخلاف البريطانيين — إخوان فى الدين لهذه القبائل ، وإذا فلن تجد بين القبائل ناسكا (فقير) يثير القلاقل ضد الباكستان وفضلا عن ذلك فإن الباكستانيين قدأثبتوا تشبثهم بعقيدتهم الإسلامية عندما أصروا على إنشاء حكومة إسلامية خاصة بهم فانسلخوا عن حكومة الهنـد المستقلة وانتقلوا بأموالهم واولادهم ومتاعهم إلى بلد جديد ليعيشوا تحت راية الإسلام .

أن الإخوة الدينية مهدت الطريق أمام الباكستانيين للاتصال بالباثانيين دون إثارة تلك الشبهات التى كان يثيرها فى الماضى مجرد ظهور انجليزى بين هؤلاء القوم الشديدى التعصب لدينهم ، ذلك أنهم يعتقدون أن الانجليزى كافر واذا فهو ليس أهلا للثقة حتى ولو كان يقدم لهم ما انتجته المدنية الحديثة من منافع وخيرات .

وليس معنى هذا أن الحكومة الباكستانية قد حلت مشاكل الحدود نهائياً فلا تزال باكستان تحتفظ بقوة عسكرية كبيرة فى مناطق الحدود ولو أن هـذه لا تقاس شيئاً كما كانت عليه الحال تحت الحكم البريطاني . ولا تزال باكستان تتخذ كل الاحتياطات العسكرية الدقيقة ، فالحصون والمراكز العسكرية التى بها لا تزال تحت حراسة قوية ، والطرق لا تزال أيضاً تحت حراسـة قوية من الطائرات التى تطير على ارتفاع منخفض أو من صفوف من اللوريات تحمل فرق الكشافة للمحافظة على الأمن فى الطريق . حقيقة أن القتال بين القبائل قد هبطت

نسبته إلى حد كبير والحكومة الباكستانية تقف منه موقفاً غاية فى الحزم كذلك تقابل هذه الحكومة أى هجوم على قواتها أو منشآتها العسكرية بمنتهى الشدة والعنف مستخدمة فى ذلك أحدث الأسلحة .

ولكن رغم كل هذه الإجراءات العسكرية فالجانب العسكرى من مشكلة الحدود ليس فى المقام الأول . أن الحكومة الباكستانية تتخذ حرس الحدود من بين أبناء القبائل أنفسهم وهى وسيلة لتشغيل العاطلين من هؤلاء الباثانيين وتعليمهم وقد أتت هذه السياسة بأحسن الثمرات .

أن باكستان تتبع سياسة تقدمية فى منطقة الحدود ، وأداة هذه السياسة ليست هى الأسلحة الحربية ولكنها مخازن الأدوية والصيدليات والمستشفيات والمدارس والساحات الرياضية وفوق ذلك كله التنمية الاقتصادية .

أن هذا السلاح الأخير هو أقوى الأسلحة لأنه يتيح الفرصة أمام رجال القبائل كي يجدوا وسائل جديدة للعيش غير شن الغارات والنهب والسلب . عندما تقوم برحلة فى مناطق القبائل على الجانب الباكستاني من خط (ديوراند تلاحظ أن أشد القبائل نزوعا للحرب تلك التى تعيش فى أفقر المناطق علي حين ان المناطق الغنية بخيراتها تضم قبائل ليست على درجة من الأقدام والبسالة تماثل ما لدى أولئك المحاربين الجبابرة . مثال ذلك أن قبائل الدوراليين عريكة من قبائل الوزيرى ، والمعروف أن الدور يملكون قطاعا خصيباً فى أعلي وادى طوشي . كولك تجد البنوشى الين عريكه من الدور والمعروف أن هؤلاء النبوشي يملكون واحة بنو الوفيرة الخيرات والتى تفوق أزخر أعالي وادى طوش فى خصوبتها واتساعها .

ولنا هنا أن نتساءل ما الذى حدا بالقبائل الوزيرى إلى أن تترك جاراتها الهيابة تملك الأرض الخصبة وتعيش عليها فى أمان ؟ .

ولماذا قبلت الوزيرى أن تظل حبيسة فوق صخورها الجرداء ؟ .

كان الأجدر بنا أن نضع السؤال علي الوجه الآتي .

لماذا كانت قبائل الوزيرى اليوم أصعب مراساً وأشد نزوعا إلى الحرب من قبائل الدور ؟ .

أن وضع السؤال فى هذه الصيغة أصح ، لأن القبيلتين تنحدران من اصل واحد وهو الباختون ، ولقد كانتا فى البداية تملكان قدراً متساوياً من البسالة فى الحرب ، يوم ان عبرتا خط تقسيم المياه بين حوض نهر هلموند ونهر السند كي تهيآ فى نفسهما وطناً جديداً فى حوض السند .

أن الفوارق القائمة بينهما حاليا فى قوة البأس مرجعها طبيعة الأرض التى عاشت عليها كل من القبيلتين منذ أن عبرتا الحدود وبدأتا الاستيطان فى حوض السند .

فالأرض التى يعيش عليها الدور هيأت لهم سبل الحياة بكدهم وجهدهم وهذا العمل المثمر وإن كان شاقا إلا أنه جاء عن طريق المسالمة ، وشغل وقت الدورى بما لا يدع أمامه فرصة ولا حافزا لخفض غمار المعارك .

أما ابن عمه الوزيرى فقد كان نصيبه قليلا بالأرض التى استوطنها فى المناطق الجبلية الجرداء فهما تعب وكد فان الأرض لن تغل ما يقيم أوده ولذلك فلم يجد أمامه وسيلة للعيش إلا الغارة على جيرانه ونهب خيراتهم ولعل الحكومة الباكستانية قد عرفت منطق الداء وقدمت خير الدواء .

وإذا كان حقا ما يقال من ان طباع القبائل نتيجة لطبيعة الأرض التى تعيش عليها ، فأنا نتوقع تغيراً كلياً فى طباع هؤلاء الجبليين وفى نظرتهم إلي الحياة وفى أطماعهم وأمالهم وخاصة عندما يغادرون معاقلهم الجبلية ويهبطون إلي السهل .

عندما وصلت ميران شاه شاهدت مبارة فى كرة القدم بين فريق كشافة الطرق والفريق المحلي . لقد اتسمت المباراة بالمهارة والنشاط والروح الطيبة من الجانبين ، واعتقد أن كل مرة يتبارى فيها الطرفان فى كرة القدم سوف تهبط أمامها مبارياتهما فى محاولة اصطياد كل منهما للآخر . وينتهز الكشافة فرص المباريات لدعوة أفراد القبيلة لشرب الشاى وبطريقة (غير متعمدة) يطلعونهم علي ما لديهم من أحدث الأسلحة .

أن رجال القبائل متهافتون على تعليم أبنائهم وقد وصل عدد المدارس . الابتدائية فى مناطق الحدود فى الخمسة عشر عاما الأخيرة إلى أربعة أضعاف

ما كان عليه من قبل . ذلك أن تسأل الأستاذ هاشم الذى كان مشرفا على التعليم فى مناطق الحدود لمدة سنوات وأصبح اليوم مسجلا لجامعة بشاور . كذلك زاد عدد المدارس المتوسطة والثانوية ، وتتخذ الآن الوسائل اللازمة لبدء تعليم البنـات .

ان موضع تحرير المرأة لا يزال إحـدى المسائل الشائكة التى كثر حولها الجدل والخلاف فى الجانب الباكستاني من الحدود الباكستانية الأفغانية عندما تقابل « الملك » والمقصود بالملك هنا العمدة ، أو المختار ، يبدأ الحديث معك فى هذا الموضوع بإفهامك أن هـذه النزعة لتحرير المرأة تخالف تعليم الاسلام وأنها قد فرضت فرضاً على المرأة الأفغانيـة التعسة تحت تأثير ضغط الشيوعيين الروس الكفرة ، على حكومة ملكية أفغانية ضلت طرقهـا ، وهى فى نفس الوقت لا تمثـل الشعب . قد يكون من الحق الاعتراف بأن حركة التجديد فى أفغانستان اليوم تسير على الأسس التى سارت عليها حكومة تركيا منذ أوائل العقد الثالث من القرن العشرين . أن هـذا التجديد يتم إلي حد ما عن طريق الأكراه ، ذلك لاقناع الحكومة بان التجديد هو السبيل الوحيد لانقاذ البلاد من التردى فى الهاوية . ومع ذلك فلو أن « الملك » الباكستاني كلف نفسه مشقة الانتقال إلى كابل لتأكد بنفسه كم أظهرت المرأة الأفغانيـة اغتباطها وارتياحها لالقاء الحجاب جانبا ، فاذا ما ذهب ذلك الرجل القادم من المناطق الجبلية إلى كراتشى أو حتى لاهور لاصابة صدمة بسبب ما يلاقيه من تحرير . فالنساء المتحررات فى كابل لا يزال عددهن محـدودا أما فى كراتشى فهن يحصين بالآلاف .

وإذا ما أطلع هذا « الملك » القادم من الجبال عن حياة الطبقـة المستنيرة الباكستانية فى كراتشى لادراك خطـأه الكبير فى تصوره أنه بالاندماج فى باكستان قد أصبح مواطنا فى دولة إسلامية تراعى التقاليد الدينية مثلماً تراعيها دولة كالعربية السعودية .

لقد سألت لفيفاً من هؤلاء « الملوك » فى حصن سانديمان عما يراه نساؤهم

فى هذا الموقف . «أجابوا فى صرامة بأن نساءهم لا يفكرون فى مثل هذا الأمر ولا يهمهن أن يفكرن فيه بتاتاً . وأضافوا قائلين :

ان نساءنا لا شأن لهن بمستقبلهم . فنحن الذين نبت فى الأمر ونعد له عدته « ورغم ذلك فقد علمت أن بعض هؤلاء « الملوك » يرسلون بناتهم إلى المدرسة الثانوية فى حصن ساندیمان . كذلك إذا أضيقت عليهم الخناق أخبروك فى صراحة أن تحرر المرأة أمر لا بد منه أن عاجلا أو آجلا . ويعزون موقفهم بالادعاء أن هذا الأمر يجب أن يترك لسير الزمان .

بعد ذلك بأيام دعيت إلى مأدبة فى شامان وهى أقصى مركز عسكرى باكستاني من مراكز الحدود على الطريق بين كوتا وتندهاز ، وكان من بين الحاضرين قائد كتيبة بالبنجاب وهو نجل لمحسود خان وقد أصبح جنديا عصريا . كانت بجانبه ابنته التى تبلغ من العمر ستة أعوام ، وكانت الطفلة فى ملابس أفرنجية وعلى عينيها منظارة أنيق .

ولقد قالت لي الفتاة أنها تود أن تصبح طبيبة . ومهما اعترض « الملوك » أو مهما اعترض أبوها فلا بد وأن تصبح يوماً ما امرأة عصرية . ويمكن القول ان وزيرستان سوف يطرأ عليها فى جيلين من التغير ماطرأ على عشائر الهايلاندر فى اسكتلندة ابتداء من ١٧٤٥ .

ان الذى أحدث التغيير فى القبائل الجبلية الاسكتلندية ليست هى مجاوز دوق كمبرلاند ولا الطرق التى شقها الجنرال وبد ، وإنما هو بدء برامج التنمية الاقتصادية فى الزراعة والصناعة . وهذه هى نفس البداية التى ظهرت على حياة القبائل الجبلية فى باكستان اليوم .

ان الحكومة الباكستانية تشجع الوزيرى فى هضبة رازمان على استثمار مواردهم من البطاطس والصوف إلى أقصي حدة وأمام الباتان فرجة للحصول علي إقطاعيات من الأراضى الخصيبة فى المناطق التى وصلتها مياه الرى حديثاً فى إقليم السند .

وكذلك أخذت قبائل المحسود تهجر وزيرستان فى جماعات كبيرة إلى منطقة تانك فى سفوح الجبال .

لقد ترك رجال الأعمال الهنود فراغا فى منطقة تانك عندما رحلوا عنها عام ١٩٤٧ ، ولكن قبائل المحسود سدت هذا الفراغ بجدارة وحماسة . أما قبائل الوزيرى فقد بدأت تحصل على أراضى خصبة ترويها مياه نهر كورام . والباتانيون فى الجانب الباكستانى قد تغيرت أساليب حياتهم تغيراً كبيراً ، وكلما تغير الوضع الاقتصادى تغيرت معه النظرة إلى الحياة . أن المدنية الباكستانية ترحف زحفاً أكيداً على مناطق القبائل .

والشيء الذى يدعو إلى الاطمئنان هنا أن هـذا القبائل لا تنفر من المدنية العصرية بل تقبل عليها ، كذلك تدرك أن عيشها لن يطيب إلا بارتباطها بالقطن الباكستاني ، وهـذا يجعلها تصم آذانها عن تلك الدعاية التى تطوقها كل آونة وتحرض قبائل الباختون المقيمـة فى باكستان على الانضمام إلى أبناء عنصرهم فى الأفغانى لتكوين ما يطلقون عليه اسم باختونستان .

ولو لم يكن أمام باكستان من تناقشه الحساب غير جارتها أفغانستان ، إذا لتنبأنا فى كثير من الثقة بأن عشائر الباتان المقيمين فى الجانب الباكستانى من خط ديوراند سوف يندمجون أخيراً فى الوطن الباكستانى ومثلهم فى ذلك مثل عشائر الهايلاندر فى مرتفعات اسكتلندة التى اندمجت فى بريطانيا أن عملية الأدماج عملية اختيارية ، وهى ليست سياسة الحكومة الباكستانية فقط ولكنها أيضاً تلقى قبولا من رجال القبائل الذين تغيرت نظرتهم إلى الحياة ولكن هنـاك عامل مجهول فى الموقف يبعث القلق فى نفوس المسئولين الباكستانيين ونفوس رجال القبائل على السواء .

٤١ ـ معاطف من فرو الأغنام

(بوسفيني) وماذر

ان الحافة الشرقية الوعرة لهضبة إيران وهى التى تنحدر انحدارا شديداً نحو حصن السند منطقة متطرفة الأجواء ، ولن تجد هناك ذلك الانتقال التدريجى الذى يخفف من حدة الجو المتطرف وأثره العنيف على الأجسام الآدميـة . فانت فى أعلى الهضبة ترتجف من شدة البرد ولا يقيك من هذا البرد القارس إلا أن تلتف بمعطف الغنم ، وما أن تنحدر إلى المنخفضات حتى تتصبب عرقا فتخلع ما عليك من ملابس وتبقى فى مئزر من القطن يغطى الحقوين قط ، لن تجـد فى الطبقة مثل هذا التطرف الجرى الشديد القسوة فى اى مـكان آخر ، ولـكن تجد مثيله فيما اصطنعه الإنسان .

أن هذه المنطقة لامثيل لها إلا الحمام التركى ، فانت هنا فى حمام تركى طبيعى على نطاق واسع : الغرفة القارسة البرد هى الحافة العليا لهضبة إيران على ارتفاع سبعة آلاف قدم فما فوقها ، تنتقل منها إلى حمام البخار ذى الحرارة العالية عندما يبلغ المنحدر ثلاثة آلاف قدم فما دونها . أما المنطقة الواقعة بين المنطقة العليا الباردة والمنطقة السفلى الحارة فهى تتدرج فى الاعتـدال شمالا وجنوبا تبعاً للقرب من البرودة والحرارة . ومن الممـكن أن تحس هذا الاعتدال إذا انتقلت من البرد القارس إلى الحر اللافح فى أقل من لمح البصر ان إحساسك عند هـذا الانتقال المفاجىء يذكرك بما ينتاب الإنسان من شعور عنيف بتبادل الحر والبرد فى مدنية مثل واشنطون أو نيويورك فى فصل الصيف القائظ ، إذا ما انتقل بين دور الأعمال أو مكاتب الحـكومة المـكيفة الهواء والشوارع الملتهبة من شدة حرارة الشمس .

عند ما كنت فى دير استمتع بطقس معتـدل نادر الحـدوث فى مثل تلك

العروض العليا أثار إعجابى منظر المندوب السياسي الباكستانى فى تشترال وزميله مدير مكتب الصحة .

ففى سويعات قليلة أخذا يتنقلان بين المناطق المغطاه بالثلوج فوق ممر لوارى والمناطق الأخرى التى تقاسى من موجة حر عنيفة حول بشاور وأنا شخصياً ألقيت نفسي وسط هذه الموجةالحرارية منذ أيام ، ففررت منها إلى أعالىوادى كورام . وتقع مدينة باراشنبار على السفح الجنوبى للجبل الأبيض ولقد كان هذا الجبل فى منتصف يونيو مكسوا بطبقةثلجية حتىسفوحه الجنوبية المواجهة لمنطقة الحرارة العظمى التى تسود الإقليم فى هذه الفترة من السنة . وفى باراشينار استمتعت بجو بارد مطير ذكرنى برذاذ انجلترا الرطب . ولكن عندما هبطنا إلى أسفل الوادى فى اليوم التالى ، ذكرتنا حقول الأرز بأننا انتقلنا من جو بريطانيه البارد إلى جو جاوه الحار الرطب . لقد كان الجو فى ثال حاراً محتبس الهواء ، ولما ان عبرنا نهر كورام ودخلنا فى إقليم وزير ستان الباس المتجهم كانت أشعة الشمس تنعكس من الصخور العارية كأنها رشاش قنابل دائبة انطلقت من فوهة مدفع .

هل نتجه إلى ميران شاه ؟ إن هذا يتوقف على عمق نهر كايتو مخاضة سينوام . لقد كانت هنا يوما ما قنطرة ولكن قبل الأزيرى حطمتها وهم الآن يقاسون سوء فعلتهم الطائشة باضطرارهم إلى الخوض فى مياه النهر ذهابا وجيئة كلما اضطرتهم ظروف الحياة إلى التردد على سوق مدينة ثال .

ولم تكن خشيتنا من حرارة الجو بأشد من خوفنا من فيضان نهر كايتود ومايتبع ذلك من سيول جارفة ، وفى هذه الحالة لابد لنا من القيام برحلة دائرية من مثار الى بنو عن طريق كوهات . وأخيراً جربنا حظنا فى عبور النهر عند مخاضة سينوام ونجحت التجربة .

لقد وصلنا قلعة مير على والهواء هنا أشد احتباساً منه فى ثال ، فى ميران شاه فقد كان معتدلا ، وهو فى رازماك يذكرك بالجو الانجليزى خاصة وأن الجبال التى تشرف على المنطقة مكسوة بالخضرة وليست بجدبة كما هو الحال فى أقليم وزير ستان .

وفى اليوم التالى انتقلنا من ميران شاه الى قلعة باغ وكنا فى هذا كمن ينتقل من جبال لبنان الى صحراء الجزيرة العربية . ولم ينقذنا من قيظ الصحراء إلا أننا عجلنا بدخول واحة بنو الواسعة . إنك هنا تشعر بالجو المنعش وكأنك بين أحراش النخيل فى الهفوف بأقليم الحسا . ولقد ازداد حجم واحة بنو بمشروعات الرى الحديثة التى أقيمت عند ملتقى نهر كورام بأحد فروعه وهو نهر طوش . ورغم كل ذلك فان هذه الواحات على اتساعها كأنها بقعة خضراء فى محيط واسع من الرمال . إن ملتقى نهر كورام وفرعه طوش منطقة حرها لافح فإذا انتقلت من هنا الى منطقة عيسى خليل فأنت فى نار موقدة ، ولا ينقذك من هذا الجحيم إلا منظر قلعة باغ فهى مكان يخالط فيه جمال الطبيعة بجزيرة الطقس هنا تجد سلاسل جبلية على شكل نصف دائرة وفى منتصف القوس تشاهد خانقاً ينفرج فجأة فى واد فسيح ومن هذا الخانق يبرز فهو دافق يبلغ عرضه ميلا كاملا .

وهو يمتد أمامك فى اتساع متدرج حتى يختفى وراء الأفق الجنوبى .

لا عجب ، فهذا هو نهر السند ! لقد ضاق ذرعا بالخوانق الجبلية التى كادت أن تزهق روحه فهو هنا عند قلعة باغ يبسط زراعيه الى أقصى الحدود ليستشعر الحرية بعد أن ظل حبيس الخوانق والجبال مساحة طويلة من مجراه .

إن الطريق من قلعة باغ الى تانك حار قائظ يذكرك بالمسافة بين واحة بنو وقلعة باغ . ولكن عندما وصلنا الى زيارات وهى على ارتفاع ثمانية آلاف قدم ألفينا أنفسنا فى حاجة شديدة إلى التدثر بالصديريات الصوفية والالتفاف فى البطاطين الصوفية الثقيلة .

انتقلنا من زيارات الى كوتا وهو هبوط لا يقل عن ألفين وخمسمائة قدم . ولذلك أحسسنا كأننا انتقلنا الى جو حار مع أن كوتا على ارتفاع ٥٦٠٠ قدم عن سطح البحر . ولكن إذا قارنتها بزيارات التى ترتفع ٨٠٠٠ قدم وكيلات التى ترتفع ٦٧٠٠ قدم عن سطح البحر يخيل لك أن كوتا لا تقل حرارة عن شابهه مع أن الفارق الحرارى بينهما كبير جداً . ولم ندرك اعتدال جو كوتا إلا عندما هبطنا الى ممر بولان وانتقلنا منه إلى سهل دوهار الفسيح الحار . فى هذا السهل عند مواصلة السكة الحديد فى سبى لاحظنا الماء يذوب فى الثلاجات التى تحملها والزبدة

تذوب في الأطباق أمامنا ، ذلك أن سيبي تقع على ارتفاع ٤٣٤ قدما من سطح البحر . قارن هذا بارتفاع كوتا الذى يبلغ ٥٦٠٠ قدما فوق سطح البحر . لقد كانت الجزيرة في سيبي في ذلك اليوم ١٢٩ درجة فهي نهيت في الظل . وبهذه المناسبة أروى للقارىء قصة الرجل الذى زار جهنم فوجد أحد نزلائها ملتفاً في بطانية وهو يرتعش من البرد ، ولما سأله الزائر كيف يرتعش من البرد وهو في جهنم ، أجاب المسكين وأسنانه تصطك من شدة البرد « أنا قادم من سيبي » وفى قول آخر « أنا قادم من مولتان » إن جو سيبي حار جاف ولذلك فهو جو محتمل .

كان رفيقى فى السند من أبناء كراتشى وقد صبرنى على بلواى فى احتمال قسوة جو سيبي بأننا فى طريقنا إلى كراتشي حيث نسيم البحر العليل على حد قول الرجل .

وعندما بلغنا كراتشي وجدت أن الجزيرة بها لا تزيد عن ١٠٤ درجة نهر نهيت بالقيام الى الـ ١٢٩ درجة التى بلغتها حرارة سيبي ، أما درجة الرطوبة في كراتشى فقد بلغت حد التشبع ، وهذا ما لا يحتمل . ولذلك لم يسعني الا الفرار من رطوبة كراتشي الى الجو الحار الجاف فى بلاخستان .

تساءلت وأنا فى كراتشي : هل أستطيع فى هذا البلد الحار الرطب ان ألبس سترتى من الصوف الأنجليزى الثقيل استعداداً للعودة إلى لندن ؟ والواقع أنى تحملتها . لأنى بعد مرور ثلاث عشرة ساعة من مغادرتى مطار كراتشى كنت فى لندن أنعم برذاذ بارد منعش يذكرني برذاذ بارلشنيار أو بالجو الجميل عندما كنت اخترق غابات العرعر فى طريقي إلى زيارات .

عندما هبطت الطائرة بمطار لندن يوم أول يوليو كانت الحرارة فى الظل لا تزيد عن نصف ما كانت عليه حرارة سيبي منذ ستة أيام مضت .

لقد كان تقلب الأجواء غاية الشذوذ والغرابة ، ومع ذلك فقد خرجت من كل هذه الأجواء وأنا فى تمام الصحة والعافية .

وبعد هذه التجربة العنيفة فى أقسى الأجواء ، أستطيع اليوم أن أقول ليس فى العالم جو رهيب مهما اشتدت قسوته .

٤٢ – ملتقى طرق أربعة

قد يخيل اليك أن دخول كوتا لن يفاجئك ، ومع ذلك فان هذا البلد يواجهك على حين غرة ، من أى السبيل طرقت أبوابه ، قد تسلم قبل مشاهده كوتا أنها مدينة تعج بالحركة والضجيج إذ لا يقل سكانها عن مائة ألف نفس كذلك تعرف قبل دخولك المدينة أنها مدينة عصرية يسودها الرخاء والازدهار ولكن إذا دخلت المدينة وشاهدت بنفسك ما هى عليه فإن الفرق كبير بين تلك الصورة التي تحتفظ بها فى حياتك وبين الأمر الواقع .

إن وزيرستان الصغيرة تثير دهشتك لكثافة سكانها وتشبثهم بها مع انها منطقة صخورجرداء . فاذا ما تنقلت إلى بلوخستان فلن تدهشك أرجاؤها الفسيحة مع قلة من بها من السكان فأنت متوقع ذلك قبل قدومك إليها . إن واحات بلاخستان التى تغذيها الآبار صغيرة وقليلة تعد على أصابع اليدين وأنك لتقود سيارتك فى بلاخستان أميالا تلو أميال وأنت فى وحدتك وليس هناك من يبدو ما أنت فيه من دهشة . ولكن إذا ما انتهيت من السفر فى هذه المهمة وألقيت عصا الترحال فى كوتا شعرت بصدمة عنيفة تهزك هزا . أهذه كوتا ؟ .

فى عام ١٨٣٩ اشتبكت إحدى قوات الغزو البريطانية فى أولى معاركها مع الأفغانيين ، وأصيبت هذه القوات البريطانية الغازية بهزيمة منكرة فخرجت تترنح من ممر بولان وأوت إلى كوتا ، ولم تكن المدينة فى ذلك الوقت تزيد عن خليط مضطرب من الأكواخ المبنية باللبن : وقد تستطيع القول إن الخير جاء إلى كوتا على أيدى سانديمان عندما أنشأ مركزاً عسكريا أماميا للامبراطورية البريطانية فى الهند عام ١٨٧٧ ، بعد أن عقد اتفاقا مع خان (أمير) كيلات فى العام السابق .

كذلك كوتا من المدن التى حبتها الطبيعة ، فالينابيع القائمة عند مدخل وادى

اوراك تزود المدينة بمياه الشرب ثم يستخدم الفائض فى الرى . وعلى مقربة من كوتا توجد مناجم الفحم .

إن أهمية كوتا لا ترجع إلى سنديمان ومركزه إلى الينابيع ولا إلى مناجم الفحم . إنما السر الحقيقى فى أهمية كوتا هو نفس السر فى أهمية بجرام . إن كل الطرق تتجه اليها ! وكلما حاولت امبراطورية كبرى أن تضم إلى أملاكها الحافة الشرقية لهضبة إيران اتخذت لها مركزاً أساسياً للمواصلات فى كوتا أو فى المناطق المجاورة لها .

وكوتا اليوم ملتقى طرق أربعة : ويسير بجانب كل من الطرق الأربعة خط حديدى، فإذا ما ألقيت الخطوط الحديدية جانبا ، ألفيتك أمام خريطة لهذه المنطقة منذ القرن السادس قبل الميلاد أثناء حكم الامبراطورية الفارسية الأولى .

إن الطريق الشمالى الغربى يؤدى من كوتا إلى قندهار فى أفغانستان أما السكة الحديدية المحاذية له فانها تنتهى عند شامان فى الجانب الباكستانى من الحدود الأفغانية الباكستانية .

ومن قندهار يمكنك الانتقال الى هيرات ومن هيرات إلى فارس حيث تلتقى بنهاية الخطوط الحديدية الإيرانية فى مدينة مشهد .

كذلك يمكنك الوصول الى مشهد بواسطة طريق دائرى يبدأ من كوتا أو عن السكة الحديدية التى تعبر الحدود الباكستانية الإيرانية وتسير الى زاهدان (المشهور باسم دوزداب) ويمكنك الانتقال من زاهدان الى مشهد بالأتوبيس . وعند مفترق الطرق بين طريقى زاهدان وممر بولان فى جنوب كوتا تجد لافتة كتب عليها : « ٥٨٨٧ الى لندن » ويبدو أن المسافة هنا حسبت على أساس الطريق الذى يلتقى حول جنوب غرب أفغانستان وشمال صحراء ايران ، ويستطيع السائق الجرىء أن يختصر الطريق الى لندن اذا عبر الطرف الجنوبى للصحراء واتجه رأسا من زاهدان الى كرمان .

أما الطريق الجنوبى الشرقى من كوتا فيتجه نحو ممر بولان الى السند عند

سكر حيث توجد قناطر تنقل مياه نهر السند لري الأجزاء الشمالية والشرقية من أقليم السند . وما دامت هناك لافتة تحمل رقم المسافة بين كوتا ولندن ، كان يجب أن تقام على طريق ممر بولان لافتة أخرى تحدد المسافة بين كوتا ومدن بومباى ويونا ومدارس فى الهند . أن القيام برحلة من كوتا ألى لندن عن طريق زاهدان هى حلم من أحلام المستقبل . أما الرحلة من كوتا إلى مهاراشترا وهضبة الدكن والطرف الجنوبى للهند عن طريق ممر بولان فقد سجلت مراراً وتكراراً على صفحات التاريخ .

فقد سلكت هـذا الطريق موجات أثر موجات من المهاجرين إلى جنوب الهند من قلب العالم القديم . فالجورجارا والبلاڤا والساكا كل بدوره سلك هذا الطريق منذ القدم . ويمكننا أن نعود بالذاكرة إلى فترة ألفى عام فى سجل التاريخ . كما أن الأدلة الفيلولوجية (المستقاة من علم أصول اللغات) تضيف ألفى سنة أخرى فلا يزال فى جنوب كوتا على الجانب الغربى من الحافة الشرقية لهضبة إيران جماعات من البراهدى يتكلمون لغة الدرافيد (لغـة سكان جنوب الهنـد) وهؤلاء قد اختلطوا عنصرياً بالبلوخيين (البلوشى) الذين يتكلمون الايرانية . هذا وأن بقاء هذه الجماعات فى قلب هضبة إيران عند طرف ممر بولان ليوحى بأنه منذ القدم ، وقبل أن تطأ أقدام الهنود والآريين أرض الهند ، كان أسلاف العناصر الدرافيون التى تسكن حاليا فى جنوب الهند قد انحدروا إلى شبه القارة الهندية عن طريق ممر بولان وخلفوا وراءهم تلك الجماعات التى نراها حول كوتا فى وقتنا الحاضر ، حيث فضلت البقاء على الرحيل إلى الجحيم .

حقيقة أن ممر بولان هو الجحيم بعينه . وهذا هو إحساس مرافقى وسائق السيارة عندما طلبت اليهما أن يرافقانى إلى هذا الممر . لقد توسلا إلى أن أؤجل هذه الرحلة المرعبة حتى وقت الغروب ، ولـكن لو قبلت ذلك لفوت على نفسي مزايا رحلتى إلى ممر بولان . كان غرضى أن أشاهد هـذا المصب الرئيسي طالما لعب دوراً هاماً فى تاريخ العالم ، وقد إزددت لهفة على مشاهدته عند ما رأيت بعض صور مثيرة للخيال على أسوار أحد مبانى بشاور . لقد شاهدت فى هذه النقوش الأثرية التى تسجيل تاريخ أول حرب انجليزية أفغانية صفوفاً طويلة من الجنـد

والبنادق والجمال والخيل والبغال وهي تسير في خط واحد منظم فوق منحدر جبلي وعر تكاد جدرة تنتصب قائمة عمودياً وعلى قمة الصخرة يقف رجال القبائل الأفغانية وهم يصوبون بنادقهم نحو الغزاة ، والجنود الهنود الأوروبيون يحاولون تسلق الصخر ليردوا على نيران رجال القبائل المنصبة عليهم .

وما أن رأيت هذه الصورة حتى بادرت بالذهاب إلى مكان المعركة لأشاهد بنفسي وكان على بعد أميال مني .

تقدمت بنا السيارة ببطء شديد فوق الهضبة ولم أر أمامي مايشير إلى وجود مكان المعركة حتى كدت أن أستشعر الفشل . وفجأة رأيت سيارة بريد كوتا تنحدر هابطة إلى نفق ، وما أن وصلنا كولبور حتى غاص الطريق وغاصت معه السكة الحديد فجأة وأطبقت عليهما أبواب الجحيم .

هنا أدركت حقيقة الموقف وكنت تماما كمن شهد الموقعة التاريخية بين البريطانيين والأفغان . فالصخرة العمودية قائمة والخانق المتدرج قائم والمنحدر الشديد لا يزال كما هو . وكانت السكة الحديد القائمة في هذه المنطقة قطعة رائعة من فن الهندسة لا يعدلها إلا السكة الحديد التي تعبر ممر خيبر قادمة من جرور ثم تتجه ثانية نحو طورخام على الحدود الباكستانية الأفغانية . إن ممر خيبر يشبه سنام الجمل ، وهناك من لاندى خانه تستمتع بمنظر رائع لجبال نورستان التى تكلل هامتها بالثلوج . أما ممر خوجاك على الطريق الشمالي الغربي من كوتا الى شامان وقندهار فهو يشبه السقف المرمى (الجملون) ولو أنك صعدت إلى قمته لأشرفت على أكثر من نصف أفغانستان . وعلى النقيض من هذين الممرين تجد ممر بولان ، فبدلاً من أن يكون محدبا (كسنام الجمل فى خيبر أو الجملون فى خوجاك) . فهو مقعر وهو فجوة تنحدر اليها من ارتفاع ٥٦٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ارتفاع ٤٣٤ قدما فقط .

أود أن أصور مدى هذا المنحدر الشديد فأقول أنه فى أثناء عبوره شاهدنا قطاري بضاعة يصعدان الممر أحدهما خلف الآخر . لم يكن القطاران طويلين ولا كثيري العربات ولكن كان يدفع كل منهما إلى الأمام قطار ثان من الخلف

بالإضافة إلى القاطرة الأمامية ، شيء عجيب هذا ، ثلاث قاطرات تجر قطاراً ! هذا ما لم تسمع به ولم تره من قبل ، حتى ولا فى سكة حديد بيرو الجنوبية التى تصل إلى ارتفاع ١٦ ألف قدم . فى المسافة بين كوليوروماش يطبق ممر بولان فكيه على المسافر ويلوكه لوكا بين هذين الفكين الهائلين . فإذا جاوزت ماشي فأنه يداعبك مداعبة القط للفأر ، ذلك وكأنه يهيء مده طريق الخلاص ، وما أن تؤخذ بالخديعة حتى يعود ثانية إلى الإطباق عليك وكأنه فى هذه المرة يزدردك أزدراداً .

تنحسر الجوانب الصخرية الوعرة قليلا فى منتصف الطريق حيث يوجد كوبرى بيبىنانى ، ولكن إذا ما وقفت فوق الكوبرى وتطلعت حولك وجدت فيها قحلا موحشاً على مدى البصر .

أخيراً تتراخى فكا الممر وكأنه قد أجهد من طول ما فغر فاه والطبقه . هناك يتسع الوادى تدريجياً ويتناقص ارتفاع الصخور الجانبية وأخيراً يعود الطريق إلى استوائه العادى وكأن الطبيعة هنا تعلن أنها الممر ، وما تلبث أن ترى لافتة ضخمة كتب عليها « نهاية ممر بولان » وهنا تكون الشمس قد مالت نحو المغيب وتحول ضوء النهار الى شفق . لقد صدق السائق فى قوله فنحن لم نبلغ نهاية الممر إلا عند الشفق ، ونحن الآن أمام داهار التى كانت مشتى (الخان لامير) ، كيلات فيما مضي .

وهكذا كانت رحلتى إلى ممر بولان والسير مسافة ستين ميلا فى طرقات الجحيم .

إن الطريق الرابع الذى يتفرع من كوتا ، فيتجه شرقا نحو حوض السند . ولهذا الطريق طريقان جانبيان فهناك طريق المرتفعات الذى يمر بغابات العرعر إلى زيارات ثم واحة لورالاى ثم يصل السند عند ديرا غازى خان . وهذ الطريق يمر بنهرى السند وسيناب ويصل الى مرلتان .

وهناك طريق منخفض من كوتا إلى حصن ساندمان وهذا الطريق اكثر سهولة من الأول وإن كان أطول منه .

وإن المسافر الفطن اذا أراد الانتقال من كوتا الى السند ، عليه ان يختار طريقاً وسطاً ، فيستطيع أن يتجنب الصعود المرهق الى زيارات ، بأن يبدأ أولا بالسير فى الطريق المنخفض مسافة ثم ينتقل الى وادى لورالاى .

عندما قاربت كوتا قادماً من طريق وانا عبرت الطريق المنخفض عند حصن سانديمان ثم اتبعت الطريق المرتفع بضعة أميال شرق مدينة لورالاى . وقد شعرت برغبة شديدة للانتقال عن طريق مظفر جار الى الشاطىء الشرقى للسند والتطلع نحو ديرا غازى خان .

وكم تحرقت شوقا فى ذلك اليوم للاتجاه نحو الشرق والوصول الى جبال سليمان عند حسن مونرو ، ومشاهدة مياه السند قرب منطقة جار .

وفى كل رحلة يقوم بها الانسان يحقق بعض أهدافه ويعجز عن تحقيق البعض الآخر ومادمت قد عجزت عن مواصلة الطريق على الطبيعة بين مولتان وكوتا فلنكتفى بدراستها على الخريطة مع ما بين الخريطة والمشاهدة من بون شاسع .

إن هذا الطريق الذى يتجه من كوتا نحو الشرق ذو اهمية خاصة للمؤرخ لأنه يدعم أقوال أولئك الذين قرروا أن سكيلاس الكارياندى عامل دارا امبراطور الفرس ، سلكه للوصول الي السند .

كانت مهمة سكيلاس أن يكتشف مصب النهر فى المحيط ، ومن ثم يكتشف طريقا بحريا من دلتا السند الى أى ميناء مصرى على البحر الأحمر وكان على سكيلاس أن يبدأ رحلته من مدينة تدعى كاسبابيروس على نهر السند وهذا هو الاسم الذى أطلقه عليها المؤرخ الأغريقى هيكاتايوس ويبدو أن هذا الاسم الأغريقى هو المقابل للاسم السنسكويتى هو « كاسياپايورا » وهو الاسم الأصلى لمدينة مولتان الحاليه طبعا للرواية الهندية المتواترة . ومن المحتمل أن التل الذى تقوم عليه مدينة مولتان كان يغطيه نهر شيناب أو نهر رافى فى أيام سكيلاس أو أنه كان يغطيه ملتقى النهرين وذلك لما نعلمه من أن النهرين يغيران مجراهما على مر الزمن ، وتمشياً مع ما قاله المؤرخ الأغريقى هيكاتيوس الذى مر ذكره فإن

كاسباييروس كانت شاطئاً أو نتوءاً جبلياً تعيش عليه بعض القبائل الرحل من أواسط آسيا . فإذا تمشينا مع هيرودوت فإنها تقع فى إقليم باكتيا أو باكتوكى بلاد الباختو أو الباختون ، وهى التى اشتهرت بأنها ساترابية (ولاية) أراكوزيا التابعة لامبراطورية فارس .

هل يا ترى كانت اراكوزيا أو بلاد الباختو تمتد من قندهار إلى كوتا ولورالاى إلى السند عند ديرا غازى خان ، برأس كوبرى فى شرق السند عند ملتقى أنهار ابسنجاب بعضها أولا ثم مع نهر السند .

كانت هذه الآراء الخاصة بالجغرافيا الاقليمية فى القرن السادس قبل الميلاد تدور فى رأسي ، وظللت أتجول فى العالم قديما أسأل عمن يدور حولى حتى وصلت سيارتنا إلى مدينة لورالاى ، ووجدتنى فى مواجهة المندوب السياسى الباكستانى وقد ألقيت عليه التحية .

٤٣ — بلوخستان

هل دار بخلدك يوما أن ترتاب فى بطولة الإنسان ؟ إن كان الأمر كذلك فعليك أن تولى وجهك شطر الجنوب من كوتا إلى وشط بلوخستان وأنا الضمين بأنك لن تصل خوزدار حتى تكون قد تبددت شكوكك .

تقع خوزدار على بعد مائتى ميل جنوب كوتا ومائتين وأربعين ميلا شمال كراتشى . أن الطريق من كوتا إلى كراتشى عبر بلوخستان فى غرب المنطقة الجبلية إثارة للاهتمام من طريق السكة الحديد من مواصلة سبي عبر إقليم السند . ومع ذلك فكل من اشتشرتهم قبل بدء الرحلة ممن لهم دارية بالمساندة فى هذه الجهات ، قرروا أن الطريق جنوب جزر دار صعب الاجتياز . كانت هناك فكرة يوماً ما لرصف الطريق بين كراتشى وكوتا ولو تم ذلك لأصبحت حوزدار وسوارب وكيلان لجاة مراكز كبرى على طريق من أهم الطرق العالمية . أما فى الوقت الحاضر فقد حذرني أولئك الذين استشرتهم وكان تحذيرهم لي بالإجماع ولذلك فقدت عدلت عن مشروعى الأول واكتفيت بالقيام برحلة بين كوتا وحوزدار . وبينما كنا فى سيرنا نحو الجنوب قابلتنا سيارتا نقل قادمتان بحمولة من الصوف من ناحية خوزدار .

لقد فضل تجار الصوف إرسال بضاعتهم شمالا إلى محطة سكة حديد ماستونج على أن تشحن هناك بالسكة الحديد إلى كراتشى . وهذا الطريق الملتوى يبلغ ثلاثة أميال طول الطريق العادى .

ولكن أثناء رحلتنا من كراتشى إلى خوزدار غرست إطارات سيارتنا فى الرمال ولم تتخلص منها إلا بكل صعوبة ومن هنا عرفت السر فى تجنب الطريق القصير .

لقد أحجمت عن القيام برحلتى رأساً إلي خوزدار ولكن لو اتفق يوما إن

ثم تعبيد المائتى ميل التى تعوق هـذا الطريق ، إذا لما ترددت لحظة واحدة فى القيام برحلة من لندن إلى كراتشى عن هذا الطريق .

لقد خرجت عن موضوعى الأصلى وهو أن بلوخستان تقوم دليلا حياً على بطولة الإنسان .

إذا سافرت من كوتا جنوباً شعرت بوحشة تتضاءل بجانبها تلك الوحشة التى تحسها عندما تستقر فى ذلك التيه الذى يلى كوتا من جهة الشرق . أن المسافة من كوتا إلي خوزدار تبلغ ١٩٠ ميلا وليس بين المدينتين إلا أربع واحات فقط ، وهى ما ستونج وكيلات وسوارب وباغ بانا . « بلوخستان ، كيلات » لقد نقشت الأسماء فى ذا كرتي نقشاً منذ أن كنت صبياً أحاول ان أحفظ عن ظهر قلب أسماء بلاد العالم وعواصمها .

أن خانية (إمارة) كيلات كانت بالفعل أمبراطورية قائمـة بنفسها قبل ان تقتطع بريطانيا أجزاءها المتاخمة لأفغانستان ثم تنقل سيادتها على ضوء الأمارة إلى باكستان . ولقد قامت باكستان بدورها بادماج كل الولايات المستقلة التى كانت تقوم سابقاً فى بلوخستان بما فيها ولاية كيلات .

لقد كان لولاية كيلات تاريخ مجيد أما مدينة كيلات فلا تزيد عن حصن وزوج من الينابيع التى تزود بالماء أربعة آلاف من السكان ، مع فضلة من هذا الماء لرى بعض بساتين الفاكهـة . أن ينابيع باغ بانا أشد غزارة وهى بذلك تبعث الحياة فيمن يقيم حولها من إنسان وحيوان ونبات ولا عيش فى هذه البقعة من العالم إلا حيث توجد الآبار .

ان موارد الماء فيا بين كوتا وخوزدار نادرة ، والطبيعة هنا تبلـغ أقصى حدود الشح ، أنك تسافر أميالا تلو أميال فى أرض قفر وتهبط واديا وترقى مرتفعات دون أن يطيب المنظر أمامك بشىء من الخضرة أو نبع من الماء ان هذه الوحدة الرهيبة لا تخلو من جمال ، ولكن هذه الجبال متعة للروح وحرمان للجسد .

ورغم قسوة الطبيعة فقد استطاع الإنسان أن يكتسب قوته من هذه الصخور

الجائعة الماحلة ، لا بل أنه استطاع أن يستدر منها رزقة حتى قبل ان يبزغ فجر المدنية .

ان الغريب عن البلاد يرى وسط بلوخستان جدبا لا رجاء فيه ، ولكن هذه البلاد كانت طوال آلاف السنين تنتج القمح الطيب ولا تزال تنتج من الصوف أحسنه .

ولكن كيف تعيش قطعان الأغنام فى هذا القفر ! هذا سر لم أدركه أنك تراها تسرح وتمرح وتسير طيعة خلف زعيمها وهو يتقدمها عبر القفار فتأتى عاجله علي ما يصادفها من نبت وتنهب الأرض سيرا حتى تبلغ مورد الماء وكثيراً ما تراها متزاحمة حول غدير به ماء وهى تحس إحساساً غريزيا بأنها معرضة للهلاك جوعا وعطشا ، ورغم كل ذلك فان صوفها من نوع ممتاز يشتد عليه الطلب فى كراتشي و يدر أرباحا وفيرة على تجار خوزدار .

وسر آخر هو أن وسط بلوخستان تسعى إلى أن تكون مخزناً للغلال كما هى مورد للصوف أن ندرة الماء تجعل من الصعب استخدام زراعة محصول كالقمح إذ يحتاج إلي ماء وفير والغريب أن حقول القمح ببلوخستان الوسطى تعتمد علي ماء قطرات المطر التى تجود بها سماء بلوخستان . وإنك لترى بين الفينة والفينة خزانا قد أقيم وأخذ القوم ينتظرون فى صبر سقط القليل من المطر .

وقد يظل الفلاح فى انتظار المطر سنوات قبل أن يتحقق أمله فى الحصول على غلة الأرض التى أعدها للقمح .

ولكنى مررت بهذه البقاع فى الأسبوع الرابع من يونيو ، وكم كانت دهشتي عندما شاهدت حقول القمح وقد امتدت كبساط ذهبي فوق صفحة القفر ! ان الزراع يحصدون القمح سنبلة سنبلة ولكن محصوله فى النهاية كبير من صنف ممتاز كالصوف الذى يصدرونه إلي كراتشى . لقد أكلت خبزاً عن عجين هذا القمح وما أتصور أني ذقت فى حياتي أطعم من هذا الخبز .

ان سكان بلوخستان اليوم أبطال حقيقة فى اعتصار خيرات الطبيعة ، ومع ذلك فهم فى البطولة أقزام بجانب أسلافهم الذين كانوا عمالقة فى هذا السبيل لقد

كانت في بلوخستان سدود ضخمة لتخزين الماء لا تزال آثارها باقية حتى اليوم ، وهذه السدود الوثنية التي هي نتاج عصر ما قبل التاريخ كتل ضخمة من البناء وتشهد بما كان عليه بناتها من حول وطول .

أنظر أيضاً إلى اقتصاديات بلوخستان اليوم . أنها جهود مشكورة لقوم يعيشون في القفر فينتزعوا منه شعرات الصوف وسنابل القمح . ولكن ما بالك باقتصاديات أسلافهم في العصر القديم وتلك آثارهم تدلنا على اقتصاد راق متقدم في ذلك العهد العريق في القدم .

ليس من البطولة في شئ أن تعمد إلى نهر جار فتقيم عليه السدود والخزانات لتتحكم في مائه فتستقي وتروي الزرع ، وإنما البطولة الحقة تتمثل في أولئك الرجال القدامى الذين أقاموا حضارة علي ما تقدمه الطبيعة بين الشح من ذلك القليل من ماء المطر .

٤٤ ـ العودة بالطائرة إلى مسقط رأسي

لقد ظللت أكثر من أربعة أشهر أتجول في الأقليم الأوسط من العالم القديم ، حيث أجد هناك كثير من حوادث التاريخ الكبرى . وأنا اليوم أعود إلى طرف ذلك العالم المعمور (بريطانيا) . أن نشأتي في هذا البلد هي التي جعلتني بريطانيا ولست يابانيا ولقد أخذت لعودتي نفاثة قادمة من استراليا في طريقها إلى لندن أني أعود اليوم إلى تولا (المعروف أن الرومان كانوا يطلقون هذا الإسم على إحدى جزر شتلند وكانوا يعتبرونهـا نهاية العـالم المتمدين وهي هنا رمز إلى جزيرة بريطانيا) .

في زيارتي السابقة لأفغانستان نقلتني الطائرة غربا من كراتشي إلى العراق فبيروت ولكن هذا كان في عام ١٩٥٧ قبل ثورة العراق الأخيرة أما في ١٩٦٠ فإن الطائرات البريطانية والاسترالية تتجنب « جو العراق » فهي أما ان تتجه شمالا فوق إيران أو تركيا أو تتجه جنوبا فوق السعودية والجمهورية العربية المتحدة وكان من حسن طالعي أن طائرتي سوف تقلني عن الطريق الجنوبي أي فوق السعودية والجمهورية العربية المتحدة . وإذا لم يكتنف الأجواء العليا اضطراب فسوف نستمتع بمناظر أخرى هامة كجبال سيناء وقناة السويس والنيل والأهرام .

كانت الرحلة الأولى في نظرنا ١٠٥٥ ميلا من كراتشي إلى البحرين فوق القرن الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب وقد قطعنا المسافة في أقل من ساعتين أما المرحلة الثانية فهي ١٢٢٥ ميلا من البحرين إلى القاهرة ، عبر أراضي السعودية وفي هذه المرة أخذت أراقب الطريق مراقبة دقيقة كي التي نظرة على سكة حديد الحجاز لأن رؤياها سوف تكون إنذار لي بأن خليج العقبة على مقربة مني . وبعد برهة وجيزة وجدتني فوق خليج العقبة . كان على يميننا الشاطئ الرملي الذي يفصل بين العقبة الأردنية وإيلات الإسرائيلية وسرحت ببصري شمال خليج

العقبة فبدت لى آثار الأخدود الشرقى الذى يمتد إلى البحر الميت . وتلفت يسرة فإذا بصرى يقع على جبل سيناء . ومن وراء جبل سيناء ظهرت قناة السويس وكأنها خيط يربط خليج السويس بالبحيرات المرة وأخيراً أصبحنا فوق مطار القاهرة .

جاءت المرحلة الثالثة وهى أطول المراحل ، ها نحن فوق دلتا النيل وهى من أكثر جهات العالم ازدحاماً بالسكان وأكثفها زراعة . طالما قيل ذلك ولكن ليس من سمع كمن رأى . أنا لم أدرك من الوصف إلا جانباً من الحقيقة . ولقد كانت هذه اللمحة خير من قراءة عدد من المجلدات : مررنا فوق الأهرام وكان كلا منها نتوء صغير لا يزيد طوله عن درجة . ومن بعد الأهرام جاء فرع دمياط ثم فرع رشيد .

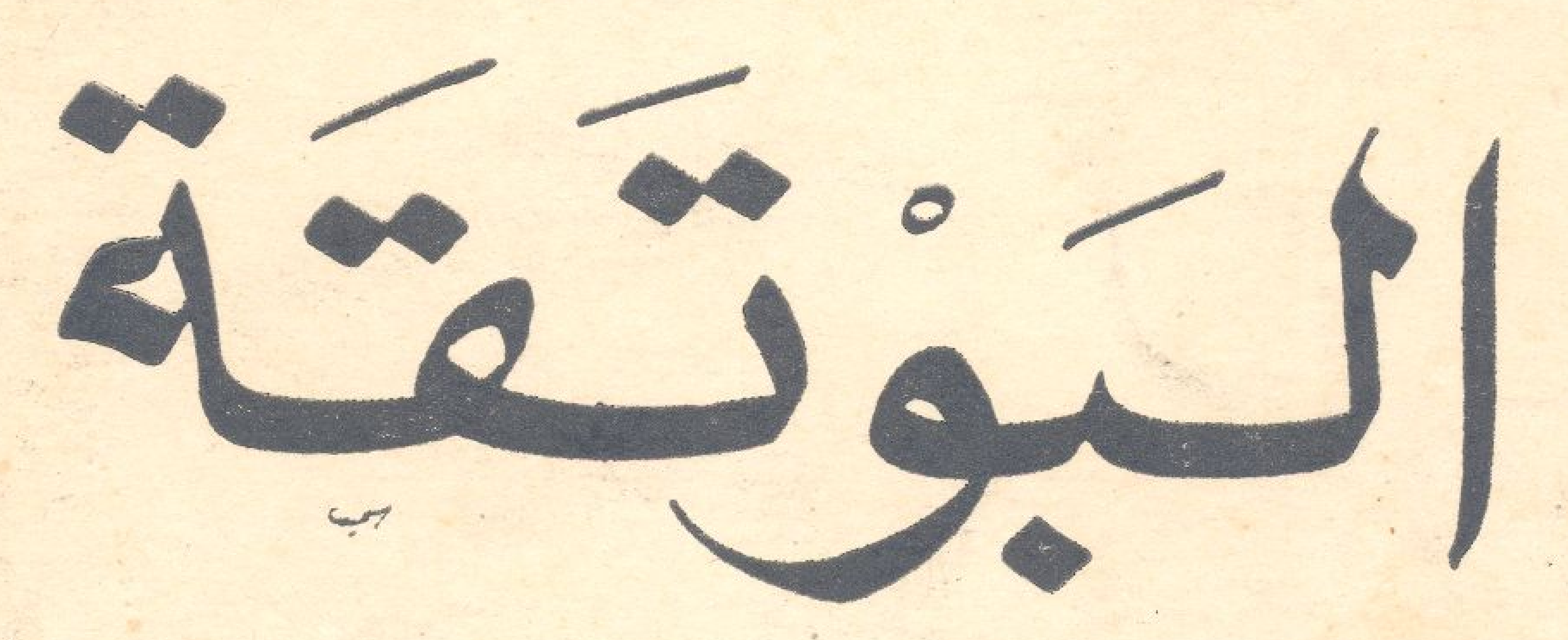
ها قد جاوزنا الجمهورية العربية المتحدة وبدأنا نحلق فوق البحر الأبيض ثم وصلنا روما .

لم يبق إلا المرحلة الأخيرة من رحلتنا بين إيطاليا وبريطانيا . لقد ظهرت جبال الألب وهى صورة مصغرة لجبال سندوكوش وجبال هيمالايا . وأخيراً وصلنا لندن .



كتب ثقافية

يصدر قريبا



للكاتب الأمريكى آرثر ميللر

ترجمة

عبد المنعم الحفنى

العدد الخامس	الثمن ● قرشا

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج – القاهرة

تليفون ٤٥٣٤٦ – ٤٥٤٠٥ – ٣١٦٢٥